

جميع حقوق الطبع والنشر والتصوير  
والاقتباس والترجمة والنقل محفوظة

الطبعة الأولى

رَجَب ١٤٢٨ هـ - أغسطس ٢٠٠٧ م

|                |  |
|----------------|--|
| عنوان الكتاب   | الشيعة والتشيع (شبهات حول الشيعة)      |
| المؤلف         | لجنة البحوث والدراسات بالطريقة العزمية |
| الناشر         | دار الكتاب الصوفى                      |
| عنوان الناشر   | ١١٤ ش مجلس الشعب - السيدة زينب         |
| رقم التليفون   | ٠٢/٢٣٩٠١٠٣٠                            |
| رقم الإيداع    | ٢٠٠٧/٩٨٢٩ م                            |
| الترقيم الدولي | ٧-٧٥-٥٢٧٣-٩٧٧                          |

سلسلة الفتوحات العزمية

(٣١)

الشيعة والتشيع فى فكر القاوة ورؤية الأئمة

# شبهات حول الشيعة

الجزء الثانى

لجنة البحوث والدراسات  
بالطريقة العزمية

## الافتتاحية

### كيف يتحد المسلمون؟

الحمد لله رب العالمين، لم يخلق الأشياء من أصول  
أزلية، ولا أوائل أبدية، بل خلق ما خلق فأقام حدّه،  
وصور ما صور فأحسن صورته، ليس بشئ منه امتناع،  
ولا له بطاعة شئ انتفاع، علمه بالأموات الماضين،  
كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السموات العلى،  
كعلمه بما في الأرضين السفلى.. لم يقرب من الأشياء  
بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق.

والصلاة والسلام على حبيبك الذى أظهرته لإقامة  
حججك، وبيان سبلك، رحمة للعالمين، وجملة به جمال  
معانى صفاتك، فجعلته رؤوفاً رحيماً، وواتقت له رسلك  
ليكونوا له أتباعاً إذا جاءهم.. سيدنا ومولانا محمد.

اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله صلاة تهب لنا بها  
فضلك العظيم، وتجلنا بها بالجمال الذى نكون محبوبين  
لحضرتك، مرادين لجناحك العلى، وتشفينا بها من كل سقم  
ومرض، وتدفع عنا بها كل شر وبلاء، وتغنينا بها عن

## محتويات الكتاب

| الموضوع                                    | الصفحة |
|--|--------|
| الافتتاحية: كيف يتحد المسلمون؟             | ٤      |
| الفصل الثالث: عبد الله بن سبأ من منظور آخر | ١٤     |
| المقدمة                                    | ١٤     |
| تمهيد                                      | ١٧     |
| الذين كتبوا عن ابن سبأ                     | ٢٣     |
| المصدر                                     | ٤٦     |
| السند                                      | ٥٢     |
| التحقيق                                    | ٥٩     |
| المتعصبون لابن سبأ                         | ٧٥     |
| أبو ذر الغفارى                             | ٨٣     |
| عمار بن ياسر                               | ٨٦     |
| خلاصة البحث                                | ٩٥     |
| الفصل الرابع: المسح على الأرجل فى الوضوء   | ٩٩     |
| أدلة القائلين بال غسل                      | ١٠٣    |
| أدلة القائلين بالمسح                       | ١٠٥    |

شرار خلقك، وتفيض علينا بها سوابغ فضلك العظيم..  
أمين يا رب العالمين.

**وبعد:**

إن من أعظم وأجمل ما دعا إليه الدين الإسلامي هو التأخي بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ومنازلهم، كما أن من أخس ما صنعه المسلمون اليوم وقيل اليوم هو تسامحهم بالأخذ بمقتضيات هذه الأخوة الإسلامية. لأن من أيسر مقتضياتها- كما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام- أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

أنعم النظر وفكر في هذه الخصلة اليسيرة في نظر آل البيت الكرام، فستجد أنها من أشق ما يفرض طلبه من المسلمين اليوم، وهم على مثل هذه الأخلاق الموجودة عندهم البعيدة عن روحية الإسلام، فكر في هذه الخصلة لو قدر للمسلمين أن ينصفوا أنفسهم ويعرفوا دينهم حقاً، ويأخذوا بها فقط أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه- لما شاهدت من أحد ظلماً ولا اعتداء، ولا سرقة ولا كذباً، ولا غيبة ولا نيمية، ولا

تهمة بسوء، ولا قدحاً بباطل، ولا إهانة ولا تجبراً.  
بل إن المسلمين لو وفقوا لإدراك أيسر خصال الأخوة فيما بينهم وعملوا بها لارتفع الظلم والعدوان من الأرض، ولرأيت البشر إخواناً على سرر متقابلين، قد كملت لهم أعلى درجات السعادة الاجتماعية، ولتحقق حلم الفلاسفة الأقدمين في المدينة الفاضلة، فما احتاجوا حينما يتبادلون الحب والمودة إلى الحكومات والمحاكم، ولا إلى الشرطة والسجون، ولا إلى قانون للعقوبات وأحكام للحدود والقصاص، ولما خضعوا لمستعمر ولا خنعوا لجبار، ولا استبد بهم الطغاة، ولتبدلت الأرض غير الأرض، وأصبحت جنة النعيم ودار السعادة.

ولكن أنى لنا هذا الحلم وبيننا دعاة التفرقة والكرهية (الوهابية) الذين يبثون سموم (التكفير والتشريك والتحقير والتبديع) بسخاء منقطع النظر، فيفرقون بين المسلم (الشيعي) والمسلم (السنّي) بما لا يصدق عقل، ومثال ذلك:

(١) جاء في كتاب (فتاوى مهمة لعموم الأمة) لعبد العزيز بن باز، ومحمد بن صالح العثيمين، إصدار مركز

تأليف أبى بكر جابر الجزائري، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الإدارة العامة للطبع والترجمة بالرياض سنة ١٤٠٥هـ، ص ٣٣ ما يلى:

(إن الهدف، أى: من التشيع، هو القضاء على الإسلام خصم اليهودية والمجوسية وعدو كل شرك ووثنية!!).  
وإن الغاية هى إعادة دولة المجوس الكسروية بعد أن هدم الإسلام أركانها، وقوّض عروشها، ومحا أثر وجودها، وإلى الأبد إن شاء الله تعالى، وهناك إشارة مغنية عن عبارة: ألم يقتل ثانى خليفة للمسلمين بيد غلام مجوسى<sup>(١)</sup>؟

ألم يحمل راية الفتنة ضد الخليفة عثمان فيذهب ضحيتها، وتكون أول بذرة للشر والفتنة فى ديار المسلمين، اليهودى عبد الله بن سبأ؟، وفى هذه الرحم المشؤومة، تخلق شيطان الشيعة، وولد من ساعته، يحمل راية بدعة (الولاية) و(الإمامة) كسيفين مصلتين على

(١) ما رأى الكاتب فى مقتل الملك فيصل بن عبد العزيز على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد بن عبد العزيز؟!.

الدعوة والإرشاد بجدة، الطبعة الثانية لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف عام ١٤١٥هـ، جمع وإعداد إبراهيم بن عثمان الفارس ص ١٤٥.. ما يلى:  
- سئل الشيخ العثيمين: هل يعتبر الشيعة فى حكم الكافرين؟

فأجاب بقوله: [الشيعة، والصواب أن يقال الرافضة، لأن تشيعهم لعلى بن أبى طالب ﷺ تشيع منطرف غال لا يقبله على ﷺ].

وقال ناقلاً عن ابن تيمية: (إنهم أكذب طوائف أهل الأهواء، وأعظمهم شركاً، فلا يوجد فى أهل الأهواء أكذب منهم، ولا أبعد عن التوحيد.... الرافضة أمة مخذولة ليس لها عقل صريح، ولا نقل صحيح، ولا دين مقبول، ولا دنيا منصوره).

وقال: وأما خطر الرافضة على الإسلام فكبير جداً، وقد كانوا هم السبب فى سقوط الخلافة الإسلامية فى بغداد، وإدخال التتر عليها، وقتل العدد الكثير من العلماء، كما هو معلوم فى التاريخ] أ.هـ.

(٢) جاء فى كتاب (هذه نصيحتى إلى كل شيعى)

رأس الإسلام والمسلمين.... على هذا الأساس أيها الشيعي، وضعت عقائد الشيعة، وسن مذهبهم، فكان ديناً مستقلاً عن دين المسلمين، له أصوله ومبادئه، وكتابه وسنته، وعلومه ومعارفه) أ. هـ.

تأمل هذا الكلام الصادر عن أبواق الوهابية- دعاة الفتنة والفرقة بين المسلمين- وما يقوله الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه (أصل الشيعة وأصولها) منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٨٢م، ص ٤٠:

[أما (عبد بن سبأ) الذي يلصقونه بالشيعة، أو يلصقون الشيعة به، فهذه كتب الشيعة بأجمعها تعلن بلعنه والبراءة منه، وأخف كلمة تقولها كتب الشيعة في حقه، ويكتفون بها عن ترجمة حاله عند ذكره في العين هكذا: (عبد الله ابن سبأ ألعن من أن يذكر) أنظر رجال أبي علي وغيره، على أنه ليس من البعيد رأى القائل: أن عبد الله بن سبأ ومجنون بنى عامر وأبي هلال وأمثال هؤلاء الرجال أو الأبطال كلها أحاديث خرافة وضعها القصاصون وأرباب السم والمجون...] أ. هـ.

والحقيقة أن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام- هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية- يعنى أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام، جنباً إلى جنب، وسواء بسواء، ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقى والعناية حتى نمت وأزهرت في حياته، ثم أثمرت بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وشاهدنا على ذلك هذه الأحاديث الشريفة التي رويت من طرق علماء السنة وأعلامهم، فمنها:

١- روى ابن حجر في الصواعق المحرقة ص ٩٦ طبع مصر، قال: أخرج الديلمي، قال ﷺ وآله: (يا علي إن الله غفر لك، ولذريتك وولدك، ولأهلك ولشيعتك، فأبشر فإنك الأنزع البطين).

٢- روى الديلمي في فردوس الأخبار، والمناوى في كنوز الحقائق ص ٩٨، والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة ص ١٨٠ و ٢٣٧ طبع إسلامبول عن أم سلمة رضي الله عنها، قال رسول الله ﷺ: (على وشيعته هم الفائزون يوم القيامة).

٣- روى السيوطي في الدر المنثور ج ٦ ص ٣٧٩ طبع مصر، قال الإمام علي كرم الله وجهه: حدثني

رسول الله ﷺ وآله، وأنا مسنده إلى صدرى فقال: (أى على ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٧)، أنت وشيعتك وموعدى وموعدكم الحوض إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غُرّاً مُحَجَّلِينَ).

٤- روى الهيثمى فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١ طبع مصر، قال ﷺ: (أبشر يا على أنت وشيعتك فى الجنة).

ولما كان الخلاف المحتدم فى بعض المسائل الفرعية بين السنة والشيعية سببه جهل كل طرف بالآخر، فقد رأت لجنة البحوث والدراسات بالطريقة العزمية أن تحدد هذه المسائل، ثم تقوم بعرض وجهة النظر الشيعية بحياد تام، مدعمة بمقارنات مع وجهة نظر أهل السنة، بقصد تقريب الخلاف بين الفريقين العظيمين لتوحيد الكلمة أمام الأجنبى المستعبد، ولتفويت الفرصة على عملائه الوهابيين دعاء التفرقة والفتنة.

وقد بدأت هذه السلسلة من (شبهات حول الشيعية) فى الجزء الأول بنقطة جوهرية فى التمييز بين الشيعية

الإمامية وغيرهم، وهى الخلاف حول (الخلافة) من حيث إنها نص أو شورى.. والشبهة الثانية: (هى شبهة مصحف الإمام على عليه السلام).

وفى هذا الجزء (الثانى) سنقوم بعرض شبهة ثالثة: وهى شبهة تأسيس عبد الله بن سبأ للأسطورة أو الخرافة لمذهب الشيعة.

**والشبهة الرابعة:** هى شبهة الغسل أم المسح على الأرجل.

والواقع أن عنوان الكتاب (شبهات حول الشيعة) قد يوحي بأن الهدف من هذا الكتاب هو محاولة تغليب مذهب على آخر.. وهذا غير مقصود ولا مطلوب لأنه لا بد من احترام استقلالية المذاهب وطبيعتها ومواقفها.. لكن المطلوب أن لا تكون عملية الاتباع للمذاهب قائمة على التعصب تجاه المذاهب الأخرى.. أو الجهل بها، أو التهجم عليها.. إنما يظل الأمر فى إطار تعدد الآراء ووجهات النظر دون الإساءة لعلاقة الأخوة والوحدة بين المسلمين.

هذه صرخة لبعث أمة، من نومة الغفلة ورفدة الجهالة،

## الفصل الثالث

### محمد الله بن سبأ.. من منظور آخر

#### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ونبيّنا  
محمد وآله الطاهرين.

وصلتنا عدّة تساؤلات حول شخصية عبد الله بن سبأ  
ومكانته في تاريخ الشيعة، ونرى بكل وضوح أنّ بعض  
هذه التساؤلات تنطلق من منطق الوعي والفهم، فيودّ  
السائل أن يلفت الانتباه حول الموضوع.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام)  
إلى تدوين كتاب ثمين في ذلك الحقل - باسم حقيقة  
التشيع - الذي يلفت الانتباه للقارئ الواعي بالنسبة إلى  
مذهب الشيعة وشؤونه ومكانته البارزة في الدين منذ  
البداية حتى الآن.

ونرى أنّ البعض الآخر من تلك الأسئلة تنبثق من  
منطق العداة والاعتداء، ويحاول السائل أن يبذر الخصام  
بين المذاهب الإسلامية، ويستهدف عدم التلاحم بين

لتوحيد صفوفها، حتى تستعيد مجد سلفها الصالح.. فنسأل  
الله تعالى أن يجمع أمرنا، ويهدى ضالنا، ويوفقنا لما يحب  
ويرضى.

لجنة البحوث والدراسات  
بالطريقة العزمية

صفوف المسلمين تحقيقاً للأهداف العدائية للاستكبار العالمي.

ومن المؤسف أنه قام بتشويه سمعة الشيعة، عدة من العملاء والمرترقة في عصرنا الحاضر فيحاولون بكل جدٍ إصاق وصمات بالمؤمنين - أتباع آل البيت - بمختلف الاتهامات، منها استغلال أسطورة عبد الله بن سبأ على الدوام، معلنين بأن هذا الشخص اليهودي هو الذى أسس أساس الشيعة. سائرين بذلك فى فلك الاستعمار العالمي الظالم.

وهذا هو الهدف المنشود عندهم، وليست لهم أذان يسمعون بها ولا قلوب يفقهون بها، ولا يُثمرنا الحديث معهم، أولئك هم السفهاء الجهلة الذين قال الله فيهم: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

ومع ذلك كله لو كان فيهم من يتبع الهدى وسبيل الرشاد أرشدناه إلى تأليف أنيق من مفكر إسلامي بارع هو الأستاذ أسد حيدر فى ضمن كتابه القيم (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) حول أسطورة عبد الله بن سبأ، وهو بالغ الجدارة بتمامها وكمالها.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت (عليهم السلام) إلى تحقيق ذلك الكتاب وتقويم نصّه من جديد، وألحق ما يرتبط بأسطورة عبد الله بن سبأ بسلسلة بحوث: (فى رحاب أهل البيت (عليهم السلام) تحت رقم ٤٣ وهو ما يقدمه لأصحاب الفكر والفضيلة<sup>(١)</sup>).  
راجياً من الله التوفيق إلى سبيل الهداية للحق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) محاولة إبعاد الأمة عن أهل البيت، والحيلولة دون التلقى منهم، والأخذ عنهم، والافتداء هو ديدن النواصب، وما زالت المحاولة مستمرة لإيقاع الأمة فى الفصام النكد والتهيه والضلال.



## تمهيد

قلّمًا يصدر كتاب يتناول البحث عن تاريخ الإسلام إلّا  
وعبد الله بن سبأ يحتلّ مكاناً في البحث ويشغل صحائف  
من الكتاب.

إنّ هذا الرجل الموهوم قد صوروه بألوان من الصور  
وأبرزوه بمختلف الأشكال، وقد وصفوه بأنّه بطل يخوض  
غامر الأهوال، ويتحمّل متاعب الانتقال ومشقة الأسفار،  
فمن المدينة إلى مكة، ومنها إلى البصرة، ثم الكوفة  
فالشام، ثم يجوب البرارى ويقطع القفار. فلا يخلو منه  
مكان: هو موج ساحر أو برق خاطف يسير بسرعة  
الصوت وربما الضوء.

إنّه داعية إحاد وشرك يضلّل الناس بأرائه، ويسمّم  
العقول بقوله. يدعو إلى المبادئ اليهودية، والعقائد  
الزرادشتية، له سيطرة على العقول، وهيمنة على الأفكار،  
يقول فيصدق، ويأمر فيطاع، يسوق العرب بعصاه، حتى  
انصاع له جمع من الصحابة - والعياذ بالله- واعتنقوا  
مبادئه كما يقولون وما أعظم ما يقولون! وأصبح أبو ذر  
خريج مدرسة سيدنا ومولانا محمد ﷺ وآله ومن شهد له

الرسول بالصدق، وعمار بن ياسر، المعذب - هو وأبوه  
وأمه- في الله، من أنصار دعوته، وحملة عقيدته،  
والمتأثرين بأفكاره<sup>(١)</sup>.

فتورة أبي ذر على ذوى الأثرة الذين جعلوا مال الله  
دولاً، وعباده خولاً كانت من آثار ابن سبأ - كما  
يفترون- والثورة على سيدنا عثمان ؓ من دسائسه،  
وحرب الجمل من تصلّبه، ووقعة صفين عن أمره،  
ومبادئ التشييع من تفكيره وآرائه .. و.. و.

فيا لمهزلة العقل وإسفاف الآراء، وخفة الأحلام! ويا  
لضياع الحق وظهور الباطل!

إنّ أعظم شيء أن يحال بين العقل وبين الحقيقة ويزج  
به في متاهات من الاختلافات والتزييف والتضليل. ليكون  
من نتائج التصديق بأكذوبة ابن سبأ وظهور نتاجات

(١) أبواق الوهابية يكفرون الشيعة بزعم أنهم يسبون ويسينون للصحابة  
ﷺ، وفي نفس الوقت يذيعون أن ابن سبأ الأكذوبة تمكن من فتنة عدد من  
الصحابة، ولا يرى الوهابيون أن ذلك فيه إساءة بالغة لأصحاب رسول الله  
ﷺ وآله، تستوجب أن يحاسبوا عليها، لأنهم يريدون أن يحكموا بالإسلام  
ولا يحكموا بالإسلام!!

وكتابات كالتى نحن بصدد تنفيذها.

لقد حان الوقت لأن نلتفت إلى الوراء لنكشف حقيقة نشأة هذه الأسطورة، ونقف على عوامل تلك الأباطيل التى طالما ظلّت أيد سوداء ممتدّة فوقها فى سكون وصمت.

إنّ تلك الأيدى العابثة بمقدّسات الدين، والتى تثير الغبار فى طريق وحدة المسلمين، تتحرك اليوم بارتجاف واهتزاز، لأنّ الوقت قد حان لرفع الستار الذى تكمن وراءه، وافتتاح أولئك المحركين لها، لأنّ الوعى بوجود تدارك خطر الفرقة أصبح ينذر أولئك الدساسين بالخطر.

ويخطئ من يقول: بأن بحث قضية ابن سبأ من الأمور التى لا مندوحة فى بحثها الآن وإثارها فى هذا العصر، فالزمن قد تغيّر، وهذه من دفائن الماضى، وليس من الصحيح نبش تلك الدفائن ونشر صحائف مطوية، أكل الدهر عليها وشرب.

وإننا نقول: إنّ هذه القضية ليست كما يتوهم المتوهمون بأنها من الصحائف المطوية، والآثار المنسية،

بل هى فى كلّ وقت غضة جديدة لا تغيّرها الأيام مهما طال زمانها، فهى تنتشر فى كلّ وقت وتجعل من الأسس التى يستند إليها أكثر كتاب عصرنا الحاضر كوسيلة للطنع على الشيعة، وفى طليعة أولئك الكتاب شيوخ يرجى بهم سد ثغرة الخلاف، والسعى فى إصلاح ما أفسدته ظروف قاسية، وعصور مظلمة.

وهناك أساتذة يؤمل بهم تنوير عقول الناشئة الإسلامية، بما يعود على الجميع بالنفع.

ولكنهم بمزيد الأسف استسلموا لعوامل كان أليق بهم أن يقفوا أمامها موقفاً واعياً، يتمشى مع مسؤوليتهم الملقاة على عواتقهم فى تربية النشء وخدمة الأمة الإسلامية فى اتباع مناهج الإسلام فى التثبّت فى النقل، والاعتدال فى النقد.

إنهم قد نقلوا أشياء كثيرة بدون تثبّت من صحتها، أو رجوع إلى مصادرها الموثوق بها. وأجلى مثال لذلك الاسترسال فى تقبل كلّ شيء هو إيراد أسطورة ابن سبأ كدليل قاطع، وبرهان واضح لا يمكن رده وليس من المستطاع تكذيبه.

فقد توالى العصور والناس تتداول هذه الأكذوبة وتردد هذه الأسطورة، ولا بدّ من النظر إلى الغد عندما تتجلبب هذه الغمامة وتلك الحجب عن العقول والبصائر، ويأخذ الجيل الواعى بنقد ما لا يقوّه العقل والمنطق، ونحن نرى اليوم الكثير من الكتاب والأساتذة الذين حكّموا العقل ونزعوا قيود الاستسلام يبادرون إلى رفض قصة عبد الله ابن سبأ وكشف زيفها والتباسات قيامها، عند ذلك ماذا ستكون النظرة لمن أسهم فى ترويح هذه الأكذوبة ونشر هذه الأسطورة.

نحن نرى أن لا مندوحة من التأكيد على الحقائق التى تضمّنها وقائع التاريخ منذ مبعث المصطفى ﷺ وآله، ولا نرى بحال أن ذلك نبشاً للماضى، لأنّ جذور التشيع نمت فى ظل الرسالة وولدت بذرتة معها، فحقائق الرسالة والسيرة النبوية وولاية الإمام على العليّة ودور الأوصياء فى حفظ الدين ورعاية الدعوة هى الوقائع التى تصاحب تطورات الأحداث وتختزن جوهر التاريخ. ولو نظرنا إلى حملات العداة والكراهية لآل البيت الأطهار ومن يتولاها على امتداد العصور والأدوار لعلمنا أنّ القصد مصالح

كاد يمحّنها الإسلام، وأغراضاً سياسية يحاربها الدين. ولقد كانت قصة عبد الله بن سبأ واحدة من محاولات أعداء الحقّ وأهله ومحاربي دعاة العدل بقصد الإساءة إلى مبادئ أهل البيت وتلطيخ تاريخهم الناصع الوضّاء. ومن المؤسف أن نرى اليوم من يستسلم لمثل هذه الأسطورة ويتخلّى عن الأخذ بمقاييس العلم وأحكام العقل مستسلماً للنقل رغم وضوح جوانب الوضع وتهافت هذه القصة الأكذوبة.

## الذين كتبوا عن ابن سبأ

وللمثال نذكر ماكتبه بعض أولئك الرجال حول قضية ابن سبأ واستنتاجهم منها أموراً تركز بحثهم عليها فمنهم:

### أبو زهو

الشيخ محمد أبو زهو - من علماء الأزهر الشريف وأستاذ كلية أصول الفقه - قال تحت عنوان (التشيع ستار لأعداء الإسلام):

ويقينى أن التشيع كان ستاراً احتجب وراءه كثير من أعداء الإسلام، من الفرس واليهود، والروم، وغيرهم ليكيدوا لهذا الدين ويقلبوا نظام هذه الدولة الإسلامية...

إلى أن يقول: أخذوا - أى أعداء الإسلام - يتحسسون أبواب الضعف فلم يجدوا باباً أنجح لهم من الحيلة والخداع، فأظهر جماعة منهم الإسلام، وانضموا إلى أهل التشيع مظهرين محبة أهل البيت، وسخطهم على من ظلم علياً عليه السلام، ثم أخذوا يسلكون به مفاوز الفتن والمهالك، حتى أبعدوا كثيراً منهم عن التدين الصحيح، بما بثّوه فيه من العقائد الزائفة، التي يدور معظمها على هدم قواعد

الدين، والتحلل من تعاليم الإسلام وأحكامه، وأصل هذه الفتنة على ما ذكره المؤرخون: رجل يهودى يدعى عبد الله بن سبأ، غلا في حبّ علىّ حتى زعم أن الله تعالى حلّ فيه، وأخذ يؤلب الناس على عثمان... إلخ.

هذا ما يقرّه أخونا الشيخ المعاصر محمد أبو زهو ويرسله إرسال المسلمات، فيلقيه على طلابه ليؤدى رسالة الأجيال التي تحمل في طياتها انتصار اليهود على المسلمين، وأن رجلاً واحداً منهم استطاع بمكره وخداعه، أن يسوق أصحاب سيدنا ومولانا محمد ويستدرجهم لأغراضه، ويفتنهم بدعوته فيستسلموا له بدون تدبّر وتفكير، ويقوموا بأمر لا باعث له إلاّ دعاية رجل يهودى فاستجابوا لدعوته، وخضعوا لإرادته وحاشاهم من ذلك، وهم أجلّ وأسمى، من أن ينزلوا إلى هذا الحضيض. ولكن الشيخ - سلمه الله - اقتنع بدون ما يوجب ذلك غفر الله له.

### محمد أبو زهرة

الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية

الحقوق، جامعة القاهرة، يقول - (١) بعد ذكر الأسباب التي أدت إلى الفتن في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه - : ولقد كان من نتائج تولية عثمان ولاة من أقاربه، أن حرك عوامل الاتهام بالمحاباة، وبعض هؤلاء لم يكونوا من ذوى السبق فى الإسلام، وبعضهم كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أباح دمه إذ ارتد بعد إيمان (كعبد الله بن سعد بن أبى سرح) وقد ولّاه عثمان بعد عمرو بن العاص، وقد أخذ هذا - أى ابن العاص - يؤلب الناس على (عثمان) بسبب ذلك حتى كان يقول: (والله إن كنت لألقى الراعى فأحرضه عليه) - أى على عثمان - وانتشرت بتولية عبد الله قالة السوء عنه: إذ أخذ الناس يتحدثون عنه، وهو الرجل الذى آمن ثم كفر ثم كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ...

إلى أن يقول: ومن الأسباب وهو أعظمها وجود طوائف من الناقمين على الإسلام الذين يكيّدون لأهله، ويعيشون فى ظلّه، وكان أولئك يلبسون لباس الإسلام، وقد دخلوا فى الإسلام ظاهراً، وأضمروا الكفر باطناً، فأخذوا يشيعون السوء عن ذى النورين (عثمان)،

(١) انظر المذاهب الإسلامية: ٤٦ - ٤٧.

ويذكرون (على بن أبى طالب رضي الله عنه) بالخير وينشرون روح النعمة فى البلاد، ويتخذون مما يفعله بعض الولاة ذريعة لدعايتهم، وكان الطاغوت الأكبر لهؤلاء: عبد الله بن سبأ وقد قال فيه ابن جرير الطبرى:

كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالهم فبدأ ببلاد الحجاز، ثم البصرة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فقال لهم فيما يقول: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)، ثم محمداً صلى الله عليه وسلم أحق بالرجعة من عيسى...

ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألف نبى، ولكل نبى وصى، وكان على وصى محمداً صلى الله عليه وسلم ثم قال: محمداً خاتم النبيين وعلى خاتم الأوصياء.

ثم قال بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله. فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه، وأبدوه بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، لتستميلوا الناس.. فبيثّ دعائه، وكان ممن استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار كتباً، يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ووسّعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبديون.

وهكذا نرى شيخ المؤرخين (الطبري) بين كيف كانت مؤامرة هؤلاء لإفساد المسلمين، واتخذوا من الشكوى من بعض ولاية عثمان ذريعة للدعوة إلى الانتفاض وبت الأفكار المنحرفة، المفرقة إلى أن يقول:

وفى ظلّ هذه الفتن نبت المذهب الشيعي، وإن كان الشيعة ومعهم غيرهم يقول: إنّ جذوره تمتدّ إلى وقت وفاة النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

## أحمد أمين

وهذا الأستاذ أحمد أمين يصفه بأنه ممن أوعز إلى أبي

(١) انظر المذاهب الإسلامية: ٤٦ - ٤٧.

ذر - صاحب رسول الله ﷺ وآله - بتعاليمه فتأثر بها إذ يقول:

ونلمح وجه الشبه بين رأى أبي ذر الغفاري وبين رأى مزدك في الناحية المالية فقط، فالطبري يحدثنا: (أن أبا ذر قام بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوي من نار تكوى بها جباههم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكوا الأغنياء ما يلقونه من الناس)، ثم بعث به معاوية إلى عثمان بن عفان بالمدينة حتى لا يفسد أهل الشام. ولما سأله عثمان: ما لأهل الشام يشكون ذربك؟ قال: لا ينبغي للأغنياء أن يفتنوا مالاً.

يقول أحمد أمين: فنرى من هذا أن رأيه قريب جداً من رأى مزدك في الأموال. ولكن من أين أتاه هذا الرأي؟

وبعد أن يوجّه الأستاذ أحمد أمين هذا السؤال ويفكر عن وجود هذه الفكرة عند الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري ﷺ وهنا ينقدح له الجواب عن ذلك فيقول:

حدثنا الطبري أيضاً عن جواب السؤال فيقول: إن ابن

السوداء لقي أبا ذر فأوعز إليه بذلك، وإن ابن السوداء هذا أتى أبا الدرداء وعبادة بن الصامت، فلم يسمعا لقلوله، وأخذ عباداً إلى معاوية وقال له: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر<sup>(١)</sup>.

ثم يقول بعد ذلك: ونحن نعلم أن ابن السوداء هذا لقب لقب به عبد الله سباً<sup>(٢)</sup>، وكان يهودياً من صنعاء<sup>(٣)</sup>، أظهر الإسلام في عهد عثمان، وأنه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم، وبث في البلاد عقائد كثيرة- في الحجاز، والبصرة، والكوفة، والشام، ومصر-، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، واعتقها أبو ذر حسن النية في اعتقادها، وصبغها بصيغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه، فقد

(١) فجر الإسلام ١١٠ ط ٢.

(٢) يقول عبد القاهر البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق) ص ٢٢٥: فلما خشى على من قتله ومن قتل ابن سباً الفتنة نفاهما إلى المدائن، فافتتن بهما الرعا بعد قتل على رضي الله عنه، فالبغدادي يرى أن ابن السوداء وابن سباً شخصان لا شخص واحد، ويتحدث بصيغة المثني (نفاهما- افتتن بهما)!!.

(٣) يقول ابن كثير في (البداية والنهاية) أنه يرى أن ابن سباً أصله من الروم!!.

كان من أتقى الناس، وأورعهم وأزهدهم في الدنيا، وكان من الشخصيات المحبوبة، التي أثرت في الصوفية<sup>(١)</sup>.

### الخطيب

ونرى أنفسنا مضطرين لأن ننقل ما كتبه الخطيب المعروف بمحب الدين<sup>(٢)</sup>؛ ليستبين القارئ ما بلغته الحالة من الاعتماد على الأكاذيب، والأخذ بالأساطير، وجعل ذلك في طريق الحجاج، كما يتجلى التحدي لمقام الصحابة الكرام، والطعن عليهم بدون مبرر، وإنما هو جراءة على مخالفة الحق والانصياع لداعية الهوى.

وهذا الرجل قد صب هذه الأسطورة بقلب رغباته، وأبرزها في إطار هواه- وكم له من اختراع في شتى المجالات- بدون أن يستند إلى دليل، أو يعتمد على مصدر.

يقول:- بعد ذكره لابن سباً- إن هذا الشيطان هو عبد الله بن سباً من يهود صنعاء، كان يُسمى ابن السوداء،

(١) فجر الإسلام ١١١ ط ٢.

(٢) أحد سمساري نشر الفكر الوهابي في مصر، مع محمد رشيد رضا.

وكان يبيث دعوته بخبث وتدرج ودهاء، واستجاب له ناس من مختلف الطبقات.

إلى أن يقول: وعنى بالتأثير على أبناء الزعماء من قادة القبائل، وأعيان المدن، الذين اشترك آباؤهم فى الجهاد والفتح، فاستجاب له من بلهاء الصالحين، وأهل الغلو من المنتطعين جماعات- كان على رأسهم فى الفسطاط: الغافقى بن حرب العكى، وعبد الرحمن بن عديس البلوى التجيبى الشاعر، وكنانة ابن بشر، وسودان ابن حمران، وعبد الله بن زيد بن ورقاء، وعمرو ابن الحمق الخزاعى، وعروة بن النباع الليثى، وقتيرة السكونى...

وكان على رأس من استغواهم ابن سبأ فى الكوفة: عمر بن الأصم، وزيد بن صوحان العبدى، والأشتر مالك النخعى، وزيد بن النظر الحارثى، وعبد الله بن الأصم. ومن البصرة: حرقوص بن زهير السعدى، وحكيم ابن جبلة العبدى، وذريح بن عباد العبدى، وبشر بن شريح، والحطم ضبيعة القيسى، وابن المحرش بن عبد. أما المدينة فلم يندفع فى هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة

نفر: محمد بن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة، وعمار بن ياسر.

ومن دهاء ابن سبأ ومكره: أنه كان يبيث فى جماعة الفسطاط الدعوة لعلّى، وفى جماعة الكوفة الدعوة لطلحة، وفى جماعة البصرة الدعوة للزبير.. ثم يذكر تزوير الرسائل من قبل ابن سبأ.

ثم يوجه الخطيب لومه على أهل المدينة بل نقده للصحابة فيقول: وكان ينبغى أن يكون ذلك سبباً ليقظتهم ويقظة على أيضاً إلا أن بين المسلمين من يزور عليهم الفساد لخطة مرسومة تتطوى على الشر الدائم والشرر المستطير، وكان ذلك كافياً لإيقاظهم إلا أن هذه اليد الشريرة هى التى زورت الكتاب على عثمان، بدليل أن حامله كان يتراءى لهم معتمداً ثم يتظاهر بأنه يتكتم عنهم، ليثير ريبهم فيه، فراح المسلمون إلى يومنا هذا ضحية سلامة قلوبهم فى ذلك الحين... الخ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وهكذا رسخت هذه الأسطورة فى أدمغة كثير من

(١) حملة رسالة الإسلام ٢٣-٢٤.



الكتّاب المعاصرين وغيرهم، ولا نودّ الاستمرار بأقوال الآخرين منهم، وبما ذكرنا كفاية لإيضاح الموقف وخطره.

فابن سبأ- كما مر عليك من الأقوال وكما نقف عليه في غير هذه الكتب- هو الذى حرك أبا ذر على معارضة معاوية فى تصرفه بالأموال، وأنّ تلك الفكرة لم تكن من روح الإسلام وتعاليمه، وإنما هى فكرة مزدكية، وكأن الآيات التى استشهد بها أبو ذر كانت من تعاليم ابن سبأ لا من تعاليم الإسلام.

كما أن هؤلاء الذين ذكرهم الخطيب من صحابة وتابعين، أصبحوا يتراسون دعوة ابن سبأ- وهم البلهاء، أو أهل الغلو- على حد تعبير الخطيب- كعمار بن ياسر الذى ستقف على ترجمته قريباً، وعبد الله بن زيد، وعمرو بن الحمق الخزاعى، وحكيم بن جبلة العبدى، وزيد بن صوحان .. و.. و...

وأىّ جناية أعظم من هذه الجناية فى هذا التهمم العظيم على رجال الأمة وعظمائها؟

ولا ندرى ما هو دليل هذا الحكم، وسند هذه الأقوال؟

نعم ليس له مصدر إلاّ الطبرى كما سيأتى.

وهذا الكاتب بالأخص- وهو الخطيب- لا يثق بأقوال الطبرى إلاّ بشروط ستقف عليها. ولكن قضية ابن سبأ قد وافقت هوى فى نفسه، فأصبح فيها- كحاطب ليل- خضوعاً لهواه.

### من أين وإلى أين؟

إنّ قضية ابن سبأ قد لاقت هوى فى قلوب كثير من الكتّاب من مسشرقين وغيرهم؛ فأحاطوها بعناية خاصة، ومنحوها مزيداً من البيان فأسبغوا عليها ألفاظاً براقية خلابة دبجتها أقلامهم، وصاروا يقررونها ويرددونها ترديد المؤمن بصحتها الوثائق بوقوعها، وكأنّها من الحقائق التى لا تقبل التشكيك، ولا ينالها النقاش من دون التفات إلى ما وراء الأكمة من الخطر.

وبمزيد من الأسف أنّهم غفلوا أو تغافلوا عن مصدر هذه القضية من أين ابتدأت وإلى أين انتهت بأثرها العظيم، وما كان من ورائها من نتائج سيئة وعواقب وخيمة.

فابن سبأ يقولون عنه- كما تقدم- هو مثير الخلافات

بين المسلمين، وهو مؤسس مذهب يربو أتباعه على أربع مئة مليون، وهو البطل الذى استطاع أن يحقق آماله فى مصر- بعد أن فشل فى غيرها من البلدان الإسلامية- فجمع الجموع، وتوجه إلى عاصمة المسلمين، وفيها الخليفة عثمان رضي الله عنه ليقلب نظام الحكم، وقد تم له ما أراد كما ذكره الشيخان: أبو زهو، وأبو زهرة وغيرهما.

وهو الذى سيطر على مشاعر أبى ذر الصحابى الجليل- الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله بالصدق- فأعلن على معاوية إنكاره فى احتكار الأموال. وأن ابن سبأ لَقِّنَ أبا ذر فكرة مزدك المجوسى الإباحى- نعوذ بالله من خطل الرأى-.

وإن ابن سبأ استطاع أن يجعل من كبار الصحابة أعضاء لدعوته، ودعاة لفكرته، إلى آخر ما أُحيطت بهذه القضية من مبالغات، وهى تزداد على مرّ الأيام، ولا نعلم إلى أين ينتهى ذلك مادام ضوء البحث والتتبع لم يتوجه إليها، ومادامت الأفلام تكتب بدون مراعاة لحق العلم.

ويجب على كل مفكر أن يتساءل عن مصدر هذه القصة، وما هو المنبع الذى استقى منه المؤرخون، ومن

بعدهم الكتاب من مستشرقين وغيرهم.

وهل تواتر النقل من طرق متعددة حتى يصح الاعتماد عليها، وتكون ذات قابلية لاعتبارها من الأمور التاريخية التى تعالج بعناء من حيث الدقة فى تعيينها لما فيها من ملاسبات، وما تضمنته من أمور لا يقبلها العقل حتى لو وردت بطرق متعددة موثوقة بها؟

ربما يظنّ أنّ لهذه القضية مصدراً موثقاً به نظراً لشهرتها وانتشارها، فى عدة كتب من كتب التاريخ والأدب، ولكن كل ذلك لم يكن، وليس لها أى مصدر يمكن الركون إليه كما سنبينه إن شاء الله.

وبغض النظر عن مصدر القصة، والبحث عن سندها، ومعرفة رجالها فإنّ العقل يحكم بسقوطها عن الاعتبار، لما فيها من مخالفة للعقل، وبعد عن الحق، وعدم ارتباطها بالواقع.

ولهذا فإنّ اللائق بمقام الأديب الباحث، أو المؤرخ المنصف، أو الأستاذ المتقف، أن يقف موقف المتثبت كما يقتضيه الحق ويفرضه الواجب العلمى، إذ المسألة ذات أهمية كبرى، لأنّها تضمّنت الحطّ من مقام المسلمين

وسلبتهم ميزة التفكير، والنظر في الأمور عندما أطاعوا رجلاً لم يعرفوه، وساروا وراء خداعه سير الأغنام. وفيها طعن على كبار الصحابة، وتوهين لرجال الإسلام، ووصفهم بالبلالة- على حدّ تعبير بعضهم- وانصياعهم لأقوال وافد غريب، وداعية شرك وإلحاد، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية أنّ فكرته لم تلق نجاحاً إلا في مصر، فإنّهم انخدعوا فيه بسرعة، ومالوا إليه بأقصر وقت، وهو داعية مجهول، ورائد غريب، كيف يقوم فيهم بكلّ صراحة، ومن دون حذر، ويؤلبهم على الانتفاضة ضد سلطان قائم، ويحثّهم على العصيان بدون سبب ولا سابقة؟ فأين أهل الرأي وذوو الحزم وذوو التفكير، أكانوا كلّهم بلهاء<sup>(1)</sup> لا يعقلون!؟

إنّ هذا ليس من العقل ولا من المنطق أن تخضع مصر بهذه السرعة وهي الأمة المسلمة، وفيها أصحاب

(1) هكذا يعيّر الخطيب المعروف بمحب الدين، بقصد الإساءة لأهل مصر، انتقاماً لما فعله محمد علي باشا وولديه إبراهيم باشا وطوسن باشا بالوهابية، خدمة لأسياده الذين كان يعمل لحسابهم في مصر.

سيدنا ومولانا محمد ﷺ وآله من ذوى العقول الراجحة والفكر الثاقب، وذوى الخبرة والتجارب.

### طه حسين

ولنترك الحديث للدكتور طه حسين حول أسطورة ابن سبأ وما فيها من مخالفات للواقع- باختصار-.

يقول الدكتور في كتابه (الفتنة الكبرى) عثمان الفصل

١٤:

وهناك قصة أكبر الرواة المتأخرون من شأنها، وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء مصدراً لما كان من الاختلاف من فرقة بين المسلمين لم تمح آثاره، وهي قصة عبد الله بن سبأ الذي يعرف بابن السوداء.

قال الرواة: كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء حبشى الأم، فأسلم في أيام عثمان، ثم جعل ينتقل في الأمصار يكيّد للخليفة ويغري به، ويحرّض عليه، ويذيع في الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم في الدين والسياسة جميعاً...

وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف في البلاد الإسلامية، أيام عثمان،

ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحصاءاً، فنظم في الأمصار جماعات خفية تنتسب بالكيد؛ وتتداعى بينها إلى الفتنة، حتى إذا تهيأت لها الأمور وثبت على الخليفة؛ فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام.

ويخيل إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً، وأول ما نلاحظه أنا لا نجد لابن سبأ ذكراً في المصادر المهمة التي قصت أمر الخلفاء على عثمان، فلم يذكره ابن سعد حين قص ما كان من خلافة عثمان، وانتقاض الناس عليه، ولم يذكره البلاذري في أنساب الأشراف، وهو فيما أرى أهم المصادر لهذه القصة وأكثر تفصيلاً. وذكره الطبري عن سيف بن عمر، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر.

ولست أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن؟ ولكن أقطع بأن خطره - إن كان له خطر - ليس ذا شأن، وما كان المسلمون في عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئاً من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان...

ومن أغرب ما يروى من أمر عبد الله بن سبأ هذا أنه هو الذي لقن أبا ذر نقداً معاوية فيما يقولون من أن المال هو مال الله، وعلمه أن الصواب أن يقول: إنه مال المسلمين. ومن هذا التلقين إلى أن يقال إنه هو الذي لقن أبا ذر مذهبه كله في نقد الأمراء والأغنياء...

فالذين يزعمون أن ابن سبأ قد اتصل بأبي ذر فألقى إليه بعض مقاله يظلمون أنفسهم، ويظلمون أبا ذر ويرقون بابن السوداء هذا إلى مكانة ما كان يطمع في أن يرقى إليها.

والرواة يقولون: إن أبا ذر قال ذات يوم لعثمان بعد رجوعه من الشام إلى المدينة:

لا ينبغي لمن أدى زكاة ماله أن يكتفى بذلك حتى يعطى السائل، ويطعم الجائع، وينفق في سبيل الله، وكان كعب الأخبار حاضراً هذا الحديث. فقال: من أدى الفريضة فحسبه. فغضب أبو ذر وقال لكعب: يا ابن اليهودية! ما أنت وهذا! أتعلما ديننا؟ ثم وجأه بمحجنه. فأبو ذر ينكر على كعب الأخبار أن يعلمه دينه، بل أن يدخل في أمور المسلمين حتى بإبداء الرأي، مع أن كعب

الأخبار مسلم، أبعد عهداً بالإسلام من ابن سبأ، وكان مجاوراً في المدينة...

وأكبر الظن أنّ عبد الله بن سبأ هذا- إن كان كلّ ما يروى عنه صحيحاً- إنّما قال ما قال ودعا إليه بعد أن كانت الفتنة، وعظم الخلاف، فهو قد استغل الفتنة ولم يثرها، وأكبر الظن كذلك أن خصوم الشيعة أيام الأمويين والعباسيين قد بالغوا في أمر عبد الله بن سبأ هذا ليشككوا في بعض ما نسب من الأحداث إلى عثمان وولاته من ناحية، وليشنعوا على عليّ وشيعته من ناحية أخرى، فيردوا بعض أمور الشيعة إلى يهودى أسلم كيداً للمسلمين.. إلى أن يقول:

هذه كلّها أمور لا تستقيم للعقل، ولا تثبت للنقد، ولا ينبغي أن تقام عليها أمور التاريخ.  
ثم يأخذ الدكتور في بيان أسباب الثورة على عثمان. تركنا التعرض لها<sup>(١)</sup>.

(١) راجع الفتنة الكبرى: ١٣٤.

## المدينة المنورة

ثم نعود لعاصمة المسلمين المدينة المنورة وفيها المهاجرون والأنصار الذين خاضوا غمار الحرب في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وفي طليعتهم الإمام على بن أبي طالب.

كيف يصحّ أن يقال بأنهم استسلموا ولم يقفوا موقف الحزم أمام جيش قاده ابن سبأ، وقطع به تلك المسافة البعيدة من مصر إلى المدينة، فيحتلها، ويقلب نظام الحكم، ويقتل الخليفة، ولم يقف المسلمون موقف الدفاع، لإنقاذ الموقف ودفع هذه الكارثة.

ولكن الواقع هو غير هذا؛ فإنّ الثورة لم تكن من مصر فقط، ولم يكن القائد لها ابن سبأ إذ لا وجود له، وإنّما كانت من المدينة للاستياء العام الذي انتشر في بلاد الإسلام من سوء تصرف الأمويين، وأعمال مروان خاصة، ممّا دعا إلى تداول الرأي بين الصحابة لإصلاح الوضع الراهن، كما ذكر ذلك أكثر المؤرخين.

ولنترك الحديث للأستاذ أحمد أمين: في آخر مؤلف ظهر له وهو (يوم الإسلام)، يقول أحمد أمين: وقد سار

عثمان في السنين الست الأولى سيرة عادلة رحيمة، ولكنه في الست الأخيرة كانت قد كبرت سنه، وخضع لأقاربه من الأمويين، فترك تصرف الأمور لرئيسهم مروان بن الحكم الأموي...

فأغضب ذلك كثيراً من الصحابة، وخصوصاً علياً والزبير وطلحة وغيرهم، فأرادوا أول الأمر أن يحرروا الخلافة من هذه السلطة، فنصحوا عثمان بالاعتزال فأبى، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى كان عثمان في المدينة، وليس معه إلا نفر قليل من الأصدقاء، وكان من أكبر الشخصيات في محاربه وتأليب الناس عليه، عائشة بنت أبي بكر، واستطاع خصومه جميعاً أن يثيروا الأمصار عليه، واجتمع أهل المدينة حول بيته، ورفضوا أن يتزحزحوا عنه، وثار المصريون أيضاً لما علموا أن كتاباً كتب باسم عثمان إلى عامله عبد الله بن أبي سرح يأمره فيه بالفتك بالزعماء عند عودتهم...<sup>(١)</sup>.

ويقول: وكان من أهم ما نقم الناس على عثمان أن طلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي صلة فأعطاه

(١) انظر يوم الإسلام لأحمد أمين: ٥٧.

أربعمائة ألف درهم، وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن نفاه رسول الله ﷺ وآله، وأعطاه مائة ألف درهم، وتصدق رسول الله ﷺ وآله بموضع سوق المدينة على المسلمين فأقطع عثمان الحارث بن الحكم، وأقطع مروان فدك، وقد كانت فاطمة طلبتها بعد وفاة أبيها، تارة بالميراث، وتارة بالنحلة، فدفعت عنها، وحمى المرعى حول المدينة كلها من مواشى المسلمين كلها إلا عن بنى أمية، وأعطى عبد الله ابن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح أفريقيا بالغرب، وهي من طرابلس إلى طنجة من غير أن يشركه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان مائتي ألفي من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف، وقد كان زوج ابنته أم أبان. فجاء زيد بن أرقم صاحب المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى.

فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي؟ قال: لا ولكن أبكي لأنني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله ﷺ وآله، والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً. فقال عثمان: إلق المفاتيح

فإننا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى الأشعري بأموال كثيرة من العراق  
فقسّمها كلّها في بنى أمية.

وزوج الحارث بن الحكم فأعطاه مائة ألف من بيت  
المال، ونفى أبا ذر رضي الله عنه إلى الربذة لمناهضته لمعاوية في  
الشام في كنز الذهب والفضة.

وضرب عبد الله بن مسعود حتى كسر أضلّاعه،  
وعدل عن طريق عمر في إقامة الحدود، وردّ المظالم،  
وكفّ الأيدي العابثة، والانتصاب لسياسة الرعية... إلخ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وكيف كان فإنّ الثورة ابتدأت من المدينة، وقام جلّ  
الصحابة في المعارضة لإصلاح الوضع مما ارتكبه  
الأمويون عندما استغلوا تلك الفرصة. وقد كاتب الصحابة  
أهل الأمصار: إن أردتم الجهاد فهلمّوا فإنّ دين محمد قد  
أفسده خليفتم<sup>(٢)</sup>.

(١) يوم الإسلام لأحمد أمين: ٥٨ - ٥٩.

(٢) انظر أنساب الأشراف للبلذرى ٥: ٦٠، والكامل في التاريخ لابن

الأثير ٣: ١٦٨، وتاريخ الطبري ٢: ٦٤٤ وغيرهم.

## المصدر

نرى أنفسنا ملزمين بأن نستعرض مصدر هذه القصة  
ونقف على المنبع الذي استقى منه الكتاب معلوماتهم  
عنها، لأننا قد وجدنا بعض الكتاب ممن يميل إلى التشكيك  
في صحتها؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا ذلك بصراحة  
لأنهم يظنون أنّها متعددة الروايات متواترة عن الثقات من  
المؤرخين، الأمر الذي يدعو إلى عدم طرحها ولكنّه ينفي  
المبالغات التي فيها.

ويذهب بعضهم إلى الجزم بصحتها لأنها وردت عن  
راوٍ خرّج حديثه الترمذى<sup>(١)</sup>، ومن هذا وذاك اختلط الأمر  
على كثير منهم.

يقول الدكتور ضياء الدين الريس: وقد أخذ بعض  
المؤلفين يميل إلى الشك في شخصية هذا الرجل - وهو  
عبد الله بن سبأ - ولكن تعدد الروايات عنه، وتواتر أنباء  
الثقات من المؤرخين تؤيد القول بوجوده، وإن كان محل  
المبالغة أنّهم ينسبون إليه كلّ ما حدث في عهد عثمان

(١) صحيح الترمذى ٥: ٦٩٧، ح ٣٨٦٦.

ويحملونه تبعته... إلخ<sup>(١)</sup>.

فالدكتور الرئيس هو واحد من أولئك الذين اشتبه عليهم الأمر فظن تعدد طرق الروايات لقضية ابن سبأ إذ وجدها المذكورة في عدة كتب، ولكنه لا يرى صحة ما أحاط بهذه الشخصية من حكايات، فهو يذهب إلى وجود شخصيته مجردة من المبالغات، وكلّ اعتماده في هذا القول هو أنّ الروايات متعددة، والأنباء عن ابن سبأ متواترة، قد نقلها الثقات من المؤرخين.

ونحن هنا نستشعر إدراكه للحقيقة وميله إلى الشك بوجود شخصية في التاريخ اسمها عبد الله بن سبأ، غير أنه لا يقوى على الإفلات من تأثير الأساليب القديمة وقواعدها والتي أخذت من طبيعة العمل بالرواية واتصالها بالحديث الشريف، فكان ما يرويه الثقات قطعياً وإن كان الأمر يتعلق بحوادث أو أفكار أو أشخاص لكل الناس الحق في النظر إليها نظرة واقعية، ونرى أنّ واجبنا العلمي يقضى بتوجيه أشعة البحث العلمي لنرى على ضوءه ما كمن في ظلمات الجهالة من حقائق يلزم

(١) النظريات السياسية الإسلامية: ٤١.

إبرازها، وإزالة كل ما يعترئها من خفاء.

ولا شك أنّ مسألة كهذه يجب على كلّ باحث حرّ أن يعطيها مزيداً من الوقت؛ لأنها ذات نتائج وخيمة أدت بالمجتمع إلى أضرار ووقوع فواح يذوب لها قلب كلّ مسلم، فلننظر على ضوء البحث ما هو مصدرها؟

إنه المصدر الأوّل لهذه القضية التي لم يسبقه أحد إلى ذكرها هو: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ) صاحب التفسير الكبير، ومؤلف تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري. وهو المصدر الوحيد لهذه القصة وجميع ما يتعلّق بأخبار عبد الله بن سبأ.

وأخذ عن ابن جرير كلّ من ابن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠هـ)، وابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤هـ)، وابن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ) وغيرهم.

وكل ما أورده ابن جرير حول أخبار ابن سبأ وحوادث عهد عثمان وأخبار الردّة إنّما كان مصدره سيف بن عمر المتوفى في عهد الرشيد أو بعده.

وليس لنا أن نتكلّم حول ابن جرير ونقله لأمثال هذه



ينأى بنفسه عن مؤاخذات عدم الصحة والاختلاق والوضع، ولم يجعل نفسه وراء نقوله والأخبار التى أثبتّها، ولم يطالبنا بتصديق كل ما ورد فى كتابه والاعتراف منا بصحة ما ضمّه تاريخه.

### أخبار الطبرى

ونرى من الأنفع هنا أن ننقل للقارئ الكريم ما كتبه الخطيب- المعروف بمحب الدين- حول تاريخ الطبرى. يقول الخطيب: (إنما ينتفع بأخبار الطبرى من يرجع إلى تراجم رواته فى كتب الجرح والتعديل، فتراجم شيوخه مباشرة وشيوخهم توجد فى مثل تذكرة الحفاظ للذهبي، وتراجم الرواة الذين كانوا إلى أواخر المائة الثانية توجد فى خلاصة تذهيب الكمال للصفى الخرجى، وتذهيب التذهيب للحافظ ابن حجر، والذين تناولهم الجرح من الضعفاء يترجم لهم الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال، وفى طبقات ابن سعد، وتاريخ بغداد للخطيب، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ الإسلام للذهبي، والبداية والنهاية لابن كثير، وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوى، ومتى يجوز الأخذ برواية

الأسطورة، فإنه نقل أقوالاً وذكر ما بلغه وسمى قائلها، وترك للباحث الحكم لها أو عليها، وقد خرج الطبرى عن عهدة المؤاخذات بما ذكره فى مقدمة كتابه بقوله: (فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستكره قارئه، أو يستشنع سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً فى الصحة، ولا معنى فى الحقيقة فليعلم أنه لم يوّت فى ذلك من قبلنا، وإنما من قبل بعض ناقله إلينا، وإنا إنّما أدّينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا)<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وبهذا فهو لم يقرّر صحة كل ما نقل إليه، وقد ترك باب النقاش مفتوحاً للباحث، كما أنه يأتى فى كتابه بالأخبار المتعارضة التى يستحيل أن تصح معاً، ولا يتعرض لها بالموازنة والترجيح إلا إذا دعت الحاجة لذلك.

والطبرى، لاشك مؤرخ جليل وفقه عالم، نذر نفسه للعلم والمعرفة، ومن وجوه علمه أن يجعل فى المقدمة تنبيهاً على طريقة كتابته لتاريخ الأمم والملوك، وبيان أنه

(١) تاريخ الطبرى ١ : ٥٠.

- هل التزم هو بما قرره هنا فبحث عن رجال السند  
لما ينقله عن الطبرى وغيره؟  
- وهل تمكن من علم مصطلح الحديث؟ وأنس بكتب  
الجرح والتعديل فوقف عن قبول رواية من جرحوه؟  
وتقبل رواية من عدلوه؟  
فإن أجاب بنعم. فالواقع يكذبه، لأنه أورد فى كتاباته  
أشياء لا تستند إلى مصدر موثوق به، فقرر قبولها طاعة  
لهواه.  
وأجلى مثال لذلك هو ما ذكرناه هنا عن قضية ابن سبأ  
التي انفرد بها الطبرى، ولم يكن فى سند الرواية من  
يتصف بصفة القبول فكيف اعتمد عليها؟  
ولا ندري أن ما ذكره هنا لماذا لا يطبقه على نفسه بل  
يريد ذلك للغير؟ وما هو إلا من الأمرين بالمعروف  
التاركين له، الناهين عن المنكر الفاعلين به.  
وإلى القراء بيان سند الرواية ليتضح لهم أن ما كتبه  
الخطيب لا يعدو حبراً على الورق.

### السند

رأينا فيما سبق كيف أخذت أسطورة ابن سبأ مأخذها

المخالف، ولا نعرف أمة عنى مؤرخوها بتمحيص  
الأخبار وبيان درجاتها، وشروط الانتفاع بها كما عنى  
بذلك علماء المسلمين، وأنّ العلم بذلك من لوازم الاشتغال  
بالتاريخ الإسلامى.

أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم، ولا يتعرفون إلى  
رواتها ويكتفون بأن يسيروا فى ذيل الخبر إلى الطبرى  
رواه فى صفحة كذا من جزئه الفلانى، ويظنون أنّ  
مهمتهم قد انتهت بذلك فهؤلاء من أبعد الناس عن الانتفاع  
بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامى من ألوف الأخبار.

ولو أنّهم تمكنوا من علم مصطلح الحديث، وأنسوا  
بكتب الجرح والتعديل، واهتموا برواة كلّ خبر كاهتمامهم  
بذلك الخبر، لاستطاعوا أن يعيشوا فى جو التاريخ  
الإسلامى، ولتمكنوا من التمييز بين غثّ الأخبار وسمينها،  
ولعرفوا للأخبار أقدارها، بوقوفهم على أقدار أصحابها<sup>(١)</sup>.

هذا ما يقرره الكاتب الخطيب. وقبل أن ندخل فى  
موضوع البحث عن سند الروايات فى قضية ابن سبأ نوّد  
أن نسائل هذا الكاتب:

(١) مجلة الأزهر العدد ٢٤ ص ٢١٠ سنة ١٣٧٢هـ.

فى التاريخ الإسلامى، وشقت طريقها إلى الهدف الذى وضعت من أجله، وهو الطعن فى عقائد المسلمين، وإبرازهم فى إطار الجهالة والانخداع، ممن يتظاهر لهم بأمر ينسبها إلى الدين، وقد عبّر كثير من الكتّاب عن أولئك الرجال العظام الذين يدعى بعض الكتّاب أنهم استجابوا لابن سبأ: بأنهم تقبلوا ذلك عن حسن نية. وبعضهم يصفهم بالبلاهة، وبعضهم بالغوا إلى آخر ما عندهم من سوء التعبير.

وقد رأينا أيضاً أنّ ابن سبأ أصبح ذا قوة وسلطان ينشر عقائده، ويبث مفاصده فى المجتمع الإسلامى بدون خوف من سلطان، أو حذر من مؤاخذة الرأى العام، حتى استطاع أن ينحرف بأكثر المسلمين عن جادة الحق بدون أن تمسه عقوبة، أو يناله ضرر من ولاة الأمصار الذين عرفوا منه السعى بما يضرّ بالدولة، فى دعوة الناس إلى ثورة ضد الخليفة عثمان رضي الله عنه.

وقد ذكروا أنّ والى البصرة اكتفى بإخراجه من البلد، وأنّ معاوية عندما علم بأمره لم يعمل معه أى شىء، وابن أبى سرح فى مصر لم يؤاخذ به شىء، وهو يرى تحشد

جموعه، وتأهبهم لغزو المدينة، لحدوث انقلاب إلى آخر ما ذكره من تهويل أمره ورفع شأنه.

يقول الدكتور طه حسين- بعد ذكره لقضية ابن سبأ واستبعاده صحتها:-

فلنقف من هذا كلّه موقف التحفظ، والتحرج والاحتياط، ولنكبر المسلمين فى صدر الإسلام عن أن يعبت دينهم، وسياستهم، وعقولهم رجل أقبل من صنعاء، وكان أبوه يهودياً، وكانت أمه سوداء، وكان هو يهودياً ثم أسلم- لا رغباً ولا رهياً- ولكن مكرراً وكيداً وخداعاً، ثم أتيح له من النجح ما كان ينبغى، فحرّض المسلمين على خليفته حتى قتلوه، وفرّقهم بعد ذلك أو قبل ذلك شيعاً وأحزاباً.

هذه كلّها أمور لا تستقيم للعقل، ولا تثبت للنقد، ولا ينبغى أن تقام عليها أمور التاريخ<sup>(١)</sup>.

نعم إنّ هذه الأمور التى أحاطت بهذه القصة وما تضمنته من أشياء لا يمكن تصديقها- وهى كافية فى طرحها، وعدم الاعتماد عليها- ولا حاجة بعد هذا إلى

(١) الفتنة الكبرى: ١٣٤.

البحث عن السند ومعرفة حالة الرواة، لأنّ ذلك - كما هو الواقع - شيء زائد لا يحتاج إليه.

ولكن نظراً لما لهذه القصة من أهمية، وأنّ بعضهم يظنّ أنّ روايتها ثقات فقد دعت الحاجة إلى معرفة حالة رجال السند، والاستماع لأقوال علماء الرجال ليّتضح الأمر وتظهر الحقيقة، ويكون الحكم للعقل لا للعاطفة وللعلم لا للجهل، وللحق لا للباطل.

وأنّ مستند هذه القصة هو واحد لا غير وهو سيف بن عمر، وقد انفرد الطبري بذلك وعنه أخذ بقية المؤرخين كما سبق. والآن نضع رجال السند أمام القراء ولهم الحكم.

## رجال السند

الطبري - في حوادث سنة (٣٠هـ) - يقول: وفي هذه السنة كان ما ذكر من أمر أبي ذر، وإشخاص معاوية إيّاه من الشام إلى المدينة، وقد ذكر في سبب إشخاصه إيّاه منها - من الشام إليها من المدينة - أمور كثيرة كرهت ذكر أكثرها، فأما العاذرون معاوية في ذلك فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلى السري يذكر أنّ شعيباً حدثه

عن سيف، عن عطية عن يزيد الفقعسي قال: لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله... إلخ<sup>(١)</sup>. كما ذكره أحمد أمين في استدلاله على أنّ ابن السوداء لقن أبا ذر مبادئ مزدك المجوسى، إذ يقول أحمد أمين: ونلمح وجه الشبه بين رأى أبا ذر وبين رأى مزدك فى الناحية المالية فقط فالطبرى يحدثنا:

إنّ أبا ذر قام بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء. بشر الذين يكتزون الذهب والفضة... إلخ كما تقدم.

ثم يقول أحمد: ولكن من أين أتاه هذا الرأى؟ - أى أبا ذر - يحدثنا الطبري أنّ ابن السوداء لقي أبا ذر فأوعز إليه بذلك... إلخ<sup>(٢)</sup>.

وهو ما أشرنا إليه الآن، فحديث الطبري كان مكاتبته من السرى أنّ شعيباً حدثه عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي.

(١) الطبرى: ٥ / ٦٦ ط١.

(٢) فجر الإسلام ص ١١٠.

فهؤلاء هم رجال سند هذه القصة، ومستند حكم أحمد أمين على أبي ذر بأنه يرى رأى مزدك، وأنه أخذه عن ابن السوداء.

فمن هم هؤلاء الرجال؟ وما هي منزلتهم؟ وما محلهم من الصدق؟ ستأتى الإجابة عن ذلك قريباً إن شاء الله. ولا يفوتنا هنا أن نلفت نظر القارئ إلى أنّ الطبرى يجعل هذه القصة من قبل العاذرين لمعاوية، وهم المتعصبون له وناهيك ما للمتعصب من أثر في الافتعال.

\* \* \*

أمّا ما يتعلّق بقضية ابن السوداء وتجواله في الأمصار الإسلامية وفشل محاولاته، وأخيراً يحطّ رحله في مصر وإظهار قوله بها في الرجعة والوصاية، وأنه بثّ دعائه - كما يروى الطبرى - وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه أمرهم إلى آخر ما رواه الطبرى<sup>(١)</sup>، وذكره الشيخ أبو زهرة وغيره من الكتاب.

وإذا رجعنا لمصدر القصة فحديث الطبرى هكذا يقول

(١) الطبرى ٥: ٩٨ ط ١.

فيما كتبه إلى السرى: عن شعيب، عن سيف، عن عطية، عن يزيد الفقعسى قال: كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء، أمّه سوداء فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالهم فبدأ بالحجاز، ثم البصرة ثم الكوفة إلى آخر ما ذكر فى ج ٥: ٩٨-٩٩ ط ١.

فالحديث يدور حول الطبرى، والسرى، وشعيب، وسيف، وعطية، ويزيد الفقعسى. هؤلاء رجال سند الرواية وهؤلاء مستند من ذكروا ابن سبأ فى كتبهم وعظموا أمره فى كتاباتهم وخلقوا منه شخصية قوية ذات تأثير فى تاريخ المسلمين بل غير مجرى التاريخ.

وأصبحت الرواية مشهورة، وقد لعبت طريقة الاتباع دورها فى تجميد العقل وترك التحقيق على ما فيها من مخالفة لقواعد التطور وقوانين الحياة التى تقضى باستخدام مقاييس العقل فيما يروى ويصدر عن الناس، فأى مقنع فى أن تكون أقوى دعامة لعدم الرد على صحة قضية ابن سبأ، أو صدورهما من ثقات كالتبرى وهو راوية ولم يفصح عن تقرير كل ما حواه تاريخه؟ ولم يقل بصحة ما ضمّه.

من عهدة النقل بقوله الأنف الذكر: فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستكره قارئه، أو يستشعنه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يوت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا، وإنما أدبنا ذلك على نحو ما أدّى إلينا<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا أصبحت المسؤولية على عاتق الرواة الذين روى عنهم، وهنا نجرى التحقيق العلمي عن رجال سند هذه القصة الذين روى عنهم الطبري وهم: السري، وشعيب، وسيف بن عمر، وعطية، ويزيد الفقعسي، فمن هؤلاء وما مقدار تحملهم للرواية؟ وماذا يقول عنهم علماء الرجال؟

## ١- السري

هذا هو أول سلسلة الرواية، والطبري عندما يروى عنه يقول: كتب إلى السري، أو فيما كتب إلى به السري. من دون أن ينسبه إلى أبيه أو عشيرته.

(١) الطبري ١: ٥.

كما أن أي رواية في قيمتها تتأثر بسندها. وقد انحصرت قصة ابن سبأ في دائرة الطبري، وبدأ عرضها على لسان سيف، ولم يشارك الطبري أحد من المؤرخين الثقات الآخرين، كما أن الفجوة الزمنية تبقى قائمة لا تغلقها أو تملأها ذيول من الأكاذيب.

## فأين كان ذكر ابن سبأ قبل رواية سيف؟

ونتزل لمقتضيات الأمانة ومستلزمات التحقيق ونسلط أشعة التحقيق على رجال قصة ابن سبأ. والواجب يقضى علينا عدم التصديق بأمثال هذه المفتريات، ولكن لزيادة الإيضاح والتنازل للحصول على ما هو الواقع نجعل هؤلاء الرجال تحت أشعة التحقيق العلمي.

## التحقيق

**الطبري:** أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ) صاحب التاريخ الكبير المعروف بتاريخ الطبري، ولا يتعلّق لنا غرض بالبحث عن شخصيته فهو شخصية معلومة ومن رؤساء المذاهب البائدة، وقد تبرأ

ولكنه روى عنه مرة مشافهة فقال: حدثني السرى بن يحيى<sup>(١)</sup>.

فظهر أنّ الذى يحدث عنه الطبرى هو السرى بن يحيى، وهو مع ذلك مجهول لا يعرف، ويتردد هذا الاسم بين جماعة هم:

السرى بن يحيى بن أياس وهذا لم يعاصر الطبرى، لأنّ وفاة السرى بن يحيى سنة (١٦٧هـ)، أى: قبل ولادة الطبرى بسبع وخمسين سنة، إذ ولادة الطبرى سنة (٢٢٤هـ)، ووفاته سنة (٣١٠هـ) فهذا لا يمكن أن يكون هو.

السرى بن يحيى بن السرى ابن أخى هناد بن السرى، ذكره ابن أبى حاتم المتوفى سنة (٣٢٧هـ) وهذا كان فى عصر الطبرى لأنّه عاصر ابن أبى حاتم، ولكن، لم تذكر له رواية، أو يشير أحد إلى من روى عنه، ولم يصفه أحد بأنه محدث أو حدّث عن أحد أو حدثوا عنه، وبهذا فهو مجهول.

وعلى أىّ حال لا يوجد بهذه النسبة من عرف بالحديث

(١) تاريخ الطبرى ٣: ٢١٣.

أو اشتهر بالرواية. وبعضهم يرى أنّ السرى الذى يروى عنه الطبرى هو السرى بن إسماعيل الهمداني الكوفى ابن عم الشعبى وكاتبه، وهذا أيضاً لا يصح لأنّ وفاة الشعبى سنة (١٠٣هـ) وولادة الطبرى سنة (٢٢٤هـ)، ولا يمكن أن يمتد عمر السرى هذا إلى زمن الطبرى فيحدثه، ومع هذا فقد اتصف بصفات توجب ردّ ما يرويه فهو ضعيف ومتروك الحديث كما يقول ابن المبارك وأبو داود، والنسائى وهو ليس بثقة وأحاديثه التى يرويها لا يتابعه عليها أحد كما يقول ابن عدى. وقال ابن حبان: كان يقلّب الأسانيد، ويرفع المراسيل إلى آخر ما وصفوه به<sup>(١)</sup>.

ويرى بعضهم أنّ السرى الذى يروى عنه الطبرى هو: السرى بن عاصم ابن سهل أبو عاصم الهمداني مؤدب المعتز بالله، وقد ينسب إلى جدّه، وهذا معاصر للطبرى لأنّ وفاته سنة (٢٥٨هـ) فى بغداد، وكان عمر الطبرى عند وفاة السرى هذا ثلاثين سنة فيمكن أن يكون هو.

(١) انظر تهذيب التهذيب ٣: ٤٥٩ - ٤٦٠، وميزان الاعتدال ١: ٢٧٠.

(١٧٠هـ)، وهو راوية أحاديث السقيفة والردة، وحوادث عهد عثمان، وهو نقطة انطلاق أسطورة ابن سبأ، وعليه تدور أخبار السبئية، ونشأتهم وأثرهم في المجتمع الإسلامي، وما أحدثوه من بدع، وما أوجدوه من خلاف. إنه هو المبدع لهذه الأساطير، والموجد لتلك الحوادث، والمنفرد بتصوير شخصية ابن سبأ، والبانى لكيانه.

وقد وصفوه بأنه وضّاع كذاب، زنديق يروى الموضوعات عن الأثبات<sup>(١)</sup>، ولننظر أولاً إلى من يروى عنهم سيف، أو بعبارة أوضح من يضع عنهم الروايات، ثم نعود إلى الحديث عن سيف.

#### ٤- من هو عطية؟

لا يدري من هو عطية الذي يروى عنه سيف، فهل هو عطية العوفى المتوفى سنة (١١٠هـ)، أم عطية بن قيس الكلابى المتوفى سنة (١٢١هـ) أم غيرهما؟ فإن كان المراد به العوفى فذلك شىء بعيد جداً، لأن عطية العوفى كان من التابعين وتوفى سنة (١١٠هـ)، فسيف

(١) تهذيب الكمال ١٢: ٣٢٤ رقم ٢٦٧٦.

ومع هذا فقد كذّبه ابن خراش ووهّاه ابن عدى، وقال: يسرق الحديث، وقال النفاش: إنه وضّاع، وذكر الذهبي حديثين من وضعه<sup>(١)</sup>.

وكيف كان فإنّ الجهالة تحيط بهذا الراوى الذى يروى عنه الطبرى، ولو فرضنا أنه معروف وأنه ثقة، يلزمنا أن نحقق عن شيخه الذى يروى عنه وهو شعيب.

#### ٢- من هو شعيب؟

شعيب بن إبراهيم وهو مجهول، قال الذهبي: شعيب ابن إبراهيم راوية كتب سيف عنه: فيه جهالة؛ وذكره ابن عدى وقال: ليس بالمعروف، وهذا لا يحتاج إلى إطالة بحث، لأنّ الجهالة قد أرخت عليه سدولها ولا يعرف إلا أنه راوية سيف بن عمر.

#### ٣- من هو سيف؟

سيف بن عمر الضبى الأسدى، ويقال التميمى البرجمى، ويقال السعدى الكوفى المتوفى بعد سنة

(١) ميزان الاعتدال ١: ٢٧٠، ولسان الميزان ٣: ١٢.



ابن عمر لم يدركه لأنه متأخر عنه بل كان فى بطون الأرحام وليس من الصعب على سيف أن يدعى الرواية عنه وهو لم يدركه. أما عطية بن قيس الكلابى فهو شامى ولم يتصل به سيف، ونحن لا ندرى من هو؟ ولئن حصلت لنا دراية فماذا تنفع وسيف ثبت أنه وضّاع؟

### 5- من هو يزيد الفقعى؟

ومن جهة ثانية إنّ يزيد الفقعى وهو نهاية السلسلة وبداية الأسطورة لم يعرف من هو، ولا يوجد فى الرجال من يسمى بهذا الاسم ويلقب الفقعى، وهنا تنقطع السلسلة، ولا يبعد أنه شخصية وهمية كشخصية عبد الله ابن سبأ، فسيف بن عمر قادر على أن يخلق ألف شخصية وشخصية، ويخترع آلاف الأساطير. فهو وضّاع بارع ويوجد من لا شىء أشياء كثيرة.. وإليك بعض ما وصف به.

### سيف بن عمر فى الميزان

وبعد أن كشف التحقيق عن رواة هذه القصة، أى: قصة ابن سبأ، نودّ أن نضع بطل هذه الأسطورة سيف بن

عمر فى الميزان، لنعرف قيمة روايته ممّا بيّنه علماء الرجال من حاله.

قال ابن حجر: سيف بن عمر التميمى البرجمى، ويقال السعدى، ويقال الضبى، ويقال الأسدى الكوفى صاحب كتاب الردة والفتوح روى عن عبد الله ابن عمر العمري وأبى الزبير...

قال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال مرة: فليس خير منه- أى لا يأتى منه خير- وقال أبو حاتم: متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدى، وقال أبو داود: ليس بشىء. وقال النسائى والدارقطنى: ضعيف، وقال ابن عدى: بعض أحاديثه مشهورة، وعامتها منكورة لم يتابع عليها، وقال ابن حبان: يروى الموضوعات عن الأثبات. وقال ابن حبان أيضاً: وقالوا عنه إنه كان يضع الحديث، واتّهم بالزندقة، وقال البرقانى عن الدار قطنى: متروك. وقال الحاكم: اتّهم بالزندقة<sup>(1)</sup>.

وقال الذهبى: سيف بن عمر الضبى الأسدى التميمى البرجمى، ويقال: السعدى الكوفى مصنف الفتوح والردة.

(1) تهذيب التهذيب 4: 291.

اجمعوا أن يولوا سعداً- يعنى ابن عبادة- ويتركوا عهد رسول الله ﷺ وآله فاستوحش المهاجرون<sup>(١)</sup>.

قال ابن السكن: سيف بن عمر ضعيف. وذكر ابن حجر قول ابن أبي حاتم: سيف بن عمر متروك الحديث، وكذلك ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب: ٣، ٢٦٣ بهامش الإصابة.

وقال السيوطى: سيف وضاع. وذكر حديثاً من طريق السرى بن يحيى عن شعيب بن إبراهيم عن سيف، فقال السيوطى: موضوع فيه ضعفاء أشدهم سيف.

\* \* \*

ولعلنا فيما أوردناه من أقوال علماء الرجال هو كاف لمعرفة سلسلة هذه الأسطورة، وبالأخص بطلها الأول سيف بن عمر، فقد استبان وزنه، وعرفت حالته، ولم يرد عن أحد منهم فيه كلمة ثناء كما وقفت عليه.

وربما يقال: إن سيف بن عمر خرج له الترمذى وروى له فى صحيحه، فيظن أن له أحاديث فى الأحكام وغيرها، أو أن الترمذى صحح حديثه؛ وبهذا يتثبت من

(١) انظر الإصابة لابن حجر ٣: ٢٣٩ ط١.

ثم يذكر أقوال علماء الرجال كما ذكر ابن حجر. ونقل عن جعفر بن أبان إنه سمع ابن نمير يقول: كان سيف يضع الحديث، وقد اتهم بالزندقة<sup>(١)</sup>.

وقال ابن أبي حاتم: سيف بن عمر الضبى: عن يحيى ابن معين أنه قال: سيف بن عمر الضبى الذى يحدث عنه المحاربى ضعيف الحديث. وقال: سئل أبى عن سيف بن عمر الضبى، فقال: متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدى<sup>(٢)</sup>.

وفى ترجمة القعقاع عند ابن أبي حاتم أورد له حديثاً رواه سيف بن عمر، عن عمر بن تمام، عن أبيه عن القعقاع، وقال ابن أبي حاتم: وسيف متروك الحديث فبطل الحديث. وإنما كتبنا ذلك للمعرفة<sup>(٣)</sup>.

والحديث هو ما رواه سيف عن القعقاع بن عمر قال: شهدت وفاة رسول الله ﷺ وآله، فلما صلي الظهر جاء رجل حتى قام فى المسجد فأخبر بعضهم أن الأنصار قد

(١) ميزان الاعتدال ١: ٤٣٨.

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢: ٢٧٨ قسم ١.

(٣) الجرح والتعديل ٣: ١٣٦ قسم ٢.

يريد أن يخلق لسيف بن عمر شخصية يوثق بها.  
ولكن الترمذى لم يرو له إلا حديثاً واحداً وقال - بعد  
أن ذكره - : وهذا منكر.

والحديث الذى رواه الترمذى هو عن أبى بكر بن نافع  
عن سيف بن عمر السعدى، عن عبيد الله بن عمر، عن  
نافع، عن ابن عمر، عن النبى ﷺ وآله قال: قال رسول  
الله ﷺ وآله: إذا رأيتم الذين يسبون أصحابى فالعنوه  
(كذا).

قال الترمذى: وهذا الحديث منكر. وبهذا فهو ساقط  
عن الاعتبار<sup>(١)</sup>.

ولسنا بحاجة إلى أكثر من هذا البيان لمعرفة حالة  
سيف بن عمر، ومقدار تحمله للرواية؛ فهو كما رأيت:  
وضاع كذاب، زنديق متروك الحديث، أحاديثه منكورة ..  
و.. و. إلخ.

ونحن إذ نتكلف البحث عن سند هذه الأسطورة  
وغيرها من أحاديث سيف التى هى أبعد ما تكون عن  
الواقع، فكل قصدنا التنبيه على ما يظنّ أو يتبادر إلى ذهن

(١) صحيح الترمذى ٥: ٦٩٧ ح ٣٨٦٦.

البعض بأنّ تلك الأساطير قد اشتهرت، وذكرها كثير من  
المؤرخين فلا بد أنّهم وثقوا من الناقلين فأثبتوها، فنالت  
هذه الشهرة.

والواقع أنّ هذه الشهرة لم تكن للتواتر، ولا لصحة ما  
يروى عن سيف، وإنما المصدر الوحيد هو الطبرى كما  
قدمنا، وقد أخذ عنه كل من ابن الأثير، وابن كثير، وابن  
خلدون، وأبى الفداء وغيرهم.

- فأما ابن الأثير فقد صرح فى مقدمة تاريخه بأنّه  
أخذ ما فى كتاب الطبرى وزاد عليه... إلخ<sup>(١)</sup>.

- وأما ابن كثير فقد ذكر فى تاريخه عن سيف بن  
عمر - فقط - أنّ سبب تألب الأحزاب على عثمان: أنّ  
رجلاً يقال له عبد الله بن سبأ، كان يهودياً فأظهر الإسلام،  
وصار إلى مصر، فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً  
اخترعه من نفسه، مضمونه أنه يقول للرجل... إلخ<sup>(٢)</sup>، ثم  
ينقل القصة، وبعد ذلك ينقل عن سيف وحده بعض  
الحوادث كما فى ص ١٦٩، ثم يمضى فى ذكر الحوادث،

(١) الكامل لابن الأثير ١: ٣ الطبعة الأولى سنة (١٣٠١هـ).

(٢) تاريخ ابن كثير ٧: ١٦٧.

حتى يأتي إلى صفحة ٢٤٦ فيقول: هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر محمد بن جرير رضي الله عنه.

- وأما ابن خلدون فإنه ذكر السبئية في حادثة الدار والجمل وقال: هذا أمر الجمل ملخصاً من كتاب أبي جعفر الطبري<sup>(١)</sup>.

وقال في ص ٤٥٧ منه: هذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية وما كان فيها من الردة، والفتوحات ثم الاتفاق والجماعة، وأردتها ملخصة من كتاب محمد بن جرير الطبري، وهو تأريخه الكبير... إلخ.

- أما ابن عساكر في تأريخه (مدينة دمشق) وهو مرجع لكثير من الكتاب: إما إليه نفسه أو إلى تهذيبه لابن بدران، وقد يرجعون إليهما معاً.

فإن ابن عساكر في حديث عن السبئية ينقل عن الطبري بل ينقل نفس العبارة كما في تهذيبه<sup>(٢)</sup> لابن بدران ولكنه يترك السند، وفي ٧: ٤٢٩ يقول: وروى سيف بن عمر عن أبي حارثة وأبي عثمان. ثم يذكر قصة ورود

(١) تاريخ ابن خلدون ٢: ٤٢٥.

(٢) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧: ٤٢٨.

ابن سبأ إلى مصر.

ويروى ابن عساكر في تاريخه عن أبي القاسم السمرقندي، عن أبي الحسن النقور عن أبي طاهر المخلص، عن أبي بكر سيف، عن السري بن يحيى، عن شعيب بن إبراهيم، عن سيف بن عمر.

فهذا هو سند ابن عساكر لجميع ما ينقله حول ابن سبأ، وأنت تراه يلتقى مع الطبري في السند الذي أورد فيه تلك الحوادث.

**وصفوة القول:** أن الجميع عيال على الطبري أو على سيف في إيراد حوادث ابن سبأ، والطبري كما تقدّم لم يضمن أصلاً صحة ما أورده في تاريخه، بل هو ناقل وترك لقرائه البحث والتنقيب، لأنه تبرأ من عهدة رواياته في التاريخ، وحملها على أكتاف رواتها له، وقد تقدم، وأن الراوى هو سيف بن عمر ولا طريق غيره.

هذا ونرى أنفسنا في غنى عن التوسع في البحث حول هذه القضية إن كان الأمر يدور حول الواقع، ومعرفة الحقيقة، وأن الحكم للعلم من دون مغالطة وتعصّب.

وقد أثبت التحقيق العلمي مقدار ما لهذه الأسطورة من

الواقع، فهي بعيدة كلَّ البعد عنه.  
وما أوردناه هنا من الموهنات لهذه الأسطورة، وما ورد في نقد سلسلة رجالها ليس كل ما ورد فيها، بل هناك أشياء كثيرة لم نذكرها اختصاراً.  
ومن الحقّ والإنصاف أن نشير إلى ما كتبه العلامة السيد المرتضى العسكري حول أحاديث سيف بن عمر وأسطورة ابن سبأ، في كتاب عبد الله بن سبأ<sup>(١)</sup> بصورة واسعة مستقصياً أحاديثه في الحوادث التاريخية، وماله من افتعالات وأحداث.  
وقد تعرّض إلى أسماء الصحابة الذين افتعل سيف بن عمر أسماءهم؛ ولم توجد إلا من طريقه بل ابتكاره.  
وقد سبق أن العلامة الأميني في الجزء الثامن من كتابه (الغدير) قد تعرّض لأحاديث سيف بن عمر الموضوعية وأحصاها وهي ٧٠١ وقال: تحت عنوان: نظرة في تاريخ الطبري:  
شوه الطبري تاريخه بمكاتبات السرى الكذاب الوضاع

(١) طبع منه الجزء الأول الطبعة الأولى في النجف الأشرف والطبعة الثانية في القاهرة.

عن شعيب المجهول الذي لا يعرف، عن سيف الوضاع المتروك، الساقط المتّم بالزندقة؛ وقد جاءت في صفحاته بهذا الإسناد المشوه ٧٠١ رواية وضعت للتمويه على الحقائق الراهنة في الحوادث الواقعة من سنة (١١١هـ) إلى (٣٧هـ) عهد الخلفاء الثلاثة، ولا يوجد شيء من هذا الطريق الوعر في أجزاء الكتاب كلها غير حديث واحد ذكر في السنة العاشرة.

وإنما بدأ برواية تلكم الموضوعات من عام وفاة النبي الأقدس ﷺ وآله وبتّها في الجزء الثالث، والرابع، والخامس، وانتهت بانتهاء خامس الأجزاء:  
ذكر في الجزء الثالث من ص ٢١٠ في حوادث سنة (١١١هـ)، ٦٧ حديثاً.

أخرج في الجزء الرابع في حوادث سنة (١٢هـ)، ٤٢٧ حديثاً.

أورد في الجزء الخامس في حوادث السنة الـ (٢٣هـ: ٣٧هـ) ٢٠٧ أحاديث فيكون المجموع ٧٠١ حديثاً<sup>(١)</sup>.

(١) الغدير ١: ٣٣٥ - ٣٣٦.

\* \* \*

وعلى أى حال فإنّ هذه الأسطورة التي أخذت مفعولها في المجتمع وأثرت أثرها السيء، هي نتيجة للتعصب الأعمى الذي ينحرف بأصحابه عن جادة الصواب، ويطلق الأوهام والخرافات من عقالها، وقد مرت قرون وهي تحتلّ مكاناً من الكتب التاريخية، بدون أن ينالها التحقيق أو تسأل عن كفاءتها لاحتلال ذلك المكان.

وقد تصرف فيها كثير من الكتاب، وفقاً لأهوائهم، وطبقاً لرغباتهم ولم يهتدوا بهدى عبقرياتهم، ومواهبهم العلمية.

وإنّ لا ننكر أنّ هناك من أنكر وجود هذه الأسطورة في صفحات الكتب واستنكر وجودها، وأنّها لا تستحق أن تحتلّ ذلك المحل من التاريخ الإسلامي؛ فأخذ يحارب وجودها، ويطالب بإبعادها، وبعض يشك في أمرها، ويتوقف عن نفيها أو إثباتها.

### المتعصبون لابن سبأ:

ومن الغريب أن نجد من يتعصب لابن سبأ، ويثبت وجوده وسعيه المنكر في إثارة الفتنة بين الصحابة،

ويتحامل على من ينكر ذلك، ويصل به تعصبه لابن سبأ إلى حدّ القول بأنّ إنكاره كمن ينكر وجود عيسى بن مريم، أو ينكر الشمس، وهذا قول بدون دليل، بل هو من المتناقضات كما سنبينه، فمن هو هذا المنكر؟ هو محمّد زاهد كوثرى وإليك نصّ قوله:

### يقول الكوثرى:\*

عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء اليماني، كان يتعثر في أذياله في سبيل الركض وراء إثارة فتن بين الصحابة ﷺ، منتقلاً بين اليمن، والحجاز، والبصرة والكوفة، ومصر والشام، للفس وتكفير الصفاء بين المسلمين في عهد عثمان وعلى (رضى الله عنهما)، أيام كان المسلمون ما خبروا أساليب الماكرين، وطرق فتن

(\*) الشيخ محمّد زاهد بن حسن الكوثرى أصله من القوقاز، ولد في الأستانة سنة (١٢٩٦هـ) وتوفي سنة (١٣٧١هـ) وكيل المشيخة الإسلامية في الخلافة العثمانية وصاحب المؤلفات الكثيرة في المذهب الحنفي وغيره. وله تعليقات على بعض الكتب ينتصر بها للحنفية، وهو شديد التحامل على من خالف مذهبه. وله رد على الخطيب البغدادي حول ما ذكره في ترجمة أبي حنيفة.

الفاتنين، من قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور، على ما في صحيح البخارى وغيره، ونتائج تلك الفتن ماثلة أمام كل باحث، مدونة في كتب ثقافت المؤرخين من علماء هذه الأمة، من أمثال ابن أبى خيثمة، وابن جرير، وابن عساكر، وابن كثير، وابن السمعاني وغيرهم رغم محاولة بعض المسفسطين من أبناء اليوم إنكار وجود شخص يقال له عبد الله بن سبأ، فضلاً عن أن يكون أحدث تلك الأحداث، ضارباً أقوال هؤلاء السادة عرض الحائط، فيما يمسّ بنى العمومة - والعرق دساس - وشأن هذا الصنف من الكتاب شأن من ينفى صلة إسماعيل عليه السلام بمكة، وشأن من ينكر وجود شخص يقال له عيسى بن مريم، فى محاولة إنكار الشمس فى رابعة النهار...

إلى أن يقول: فاستبعاد سعى ابن سبأ فى الفتنة فى عهد عثمان بعد اعتراف جولد تسهير اليهودى بذلك تحزباً لليهود فوق اليهود أنفسهم، وسيف بن عمر من رجال جامع الترمذى فلا يستغنى عن أنبائه... إلخ<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) انظر تقديم كتاب المقدمات الخمس والعشرين: ٣ - ٥.

هذا هو حكم الشيخ الكوثرى على قضية ابن سبأ، وأنها كالشمس فى رابعة النهار، وأن من أنكرها من الكتاب يكون من أبناء عمومة ابن سبأ، بمعنى: أنه يهودى إذ العرق دساس - على حدّ تعبيره - وأن سيف بن عمر لا يستغنى عن أنبائه وهو من رجال جامع الترمذى، والراوى وهو الطبرى وهو ثقة، وأن جولد تسهير ذكرها. وهذه أدلة يسوقها الكوثرى لإثبات قضية ابن سبأ بطل الفتنة، وقائد جيش الانقلاب على الخليفة عثمان رضي الله عنه.

ولعلّ هناك ممن يطلع على هذا القول فيظنّ أنّ الكوثرى حكم بهذا نتيجة لتتبعه وقناعته فى الموضوع، وكلّ ذلك لم يكن.

وإنما كان هذا الحكم نتيجة لتعصّبه وتعمّده لإخفاء الحقائق والتمويه والجدل، ونحن من فمه ندينه فى نقض هذا الحكم.

### من فمك أدينك..

بين أيدينا مقال للشيخ الكوثرى عنوانه: (كلمة عن خالد بن الوليد وقتل مالك بن نويرة).

يتحدّث الشيخ فى هذه الكلمة حول حادثة مالك بن

نويرة، وقتل خالد له ودخوله على زوجة مالك فى ليلة قتله، كما ذكرها المؤرخون.

يقف للدفاع عن خالد ويندد فى كتب الغربيين الذين نقلوا هذه الحادثة ويقول: وكانت طريقة كتاب الغرب فى النيل من الإسلام طريقة الإقذاع المجرّد..

ثم يطعن فى كتب السير أمثال محمّد بن إسحاق فيكذّبه، ويكذّب رواته.

وكتاب الواقدي وأنه غير متثبت، بل يروى عن كل من هب ودب، ويروى الأخبار الكاذبة.

إلى أن يأتى إلى الطبرى وهو أحد رواة تلك الحادثة فيقول: وابن جرير الطبرى عمدة أمثال ابن الأثير، وأبى الفداء، وابن كثير، وابن الوردي، وأنّ الطبرى لم يضمن صحة ما أورده فى تاريخه، وأنه تبرأ من عهدة رواياته فى التاريخ وحملها على أكتاف رواتها له.

وهكذا يقف الشيخ فى الدفاع عن سيدنا خالد عليه السلام ويطعن فى كتب التاريخ ويكذب الرواة.

وليس هذا محل القصد من ذلك بل نريد أن نستمتع فى دفاعه عن سيف بن عمر وشيوخه، ومن روى عن سيف،

وقد تقدّم قوله مما يشعر بأنه من رجال جامع الترمذى ويؤخذ بأحاديثه.

فلنترك الشيخ يتحدّث عن سيف فى مقام دفاعه عن خالد فيقول: سيف بن عمر التميمى صاحب كتاب الردة والفتوح، يقول عنه أبو حاتم: متروك الحديث يشبه حديثه حديث الواقدي. وقال الحاكم: أُتّم بالزندقة وهو فى الرواية ساقط. وقال ابن حبان: إنه كان يضع الحديث، يروى الموضوعات عن الإثبات، أُتّم بالزندقة وضعّفه غير واحد.

ورأيت شعيب بن إبراهيم يقول عنه الذهبى: فيه جهالة.

ويقول ابن عدى: ليس بالمعروف وله أحاديث وأخبار فيها ما فيه تحامل على السلف.

والراوى عنه السرى بن يحيى غير موثق، وهو شيخ ابن جرير فى رواياته عن سيف، وأما من فوق سيف من الرجال مجاهيل فى الغالب<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

(١) انظر مقالات زاهد كوثرى: ٤٥٥ - ٤٦٢.



هذا ما جاء في دفاع الكوثري عن خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقد ظهر لنا أنه يطعن في مرويات سيف ويكذبه، وهذا السند هو نفسه الذي خرّج فيه أحاديث وحوادث السبئية. فما معنى جزمه بصحة ما جاء في هذا السند عن حوادث السبئية وأنها كالشمس في رائحة النهار؟ وفي قضية خالد بن الوليد وقتله لمالك ونزوه على امرأته يحكم بكذبه، ويجزم بتوهينه كما مرّ.

\* \* \*

ولسنا بصدد إيراد هذه القصة والبحث عن ورودها، ولكننا نريد أن نبين مدى ما بلغت إليه الحالة من التكرار للحقائق، والابتعاد عن الواقع، نتيجة للتعصب الأعمى، وانقياداً للهوى المردى.

ولعلّ الشيخ الكوثري يعتذر بأمر واجب وهو: أنّ رواية قتل مالك بعد ثبوت إسلامه، وقد شهد له جماعة عند خالد، ونزوه على امرأته، وبذلك طعن على خالد وهو صحابي، ولا يصح الطعن، وحينئذٍ يجب تأويل كلّ رواية تتضمن ذلك، وقد تقدم قول النووي، قال العلماء: الأحاديث الواردة في ظاهرها حمل على صحابي يجب

تأويلها<sup>(١)</sup>.

والشيخ الكوثري قام بواجبه في الدفاع عن خالد في ارتكابه تلك الفعلة الشنيعة. ولأنّ سيفاً في بعض طرق الطبرى لرواية خالد انهال عليه الكوثري ببراهين الحق، ولكنّ التعصب أو العناد يحول سيفاً إلى راوية ثقة ولا يستغنى عن أنبائه لأنه مصدر قصة ابن سبأ، فهل هذا من العلم والأمانة في شيء؟!

وعلى أيّ حال، فإنّ قضية ابن سبأ تتضمن الطعن على أغلبية الصحابة، ووصفهم باتّباع رجل يهودي يضلّهم عن دينهم ويدعوهم إلى ما نهى الإسلام عنه، وفيها: أنّ أبا ذر تلقى مبادئ الزرادشتية والتعاليم اليهودية من ابن سبأ، وعمار بن ياسر من استهواه ابن سبأ، فأصبح على رأس الدعاة لابن سبأ ومباده.

وبهذا تكذيب لأقوال رسول الله صلى الله عليه وآله، ووصفه لأبي ذر بالصدق، ولعمار: بأنّه مع الحقّ والحقّ معه، وإنه ما خير بين أمرين إلاّ اختار أشدهما، وأنّ عماراً هو ميزان لمعرفة الفئة المحققة، ولا تقتله إلاّ الفئة الباغية.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥: ١٧٧.

ونرى من اللازم هنا ختاماً لهذا الموضوع أن نشير لبعض الأحاديث الواردة من صاحب الرسالة الأعظم نبينا محمد ﷺ وآله في أبي ذر وعمار بن ياسر (رضى الله عنهما).

### أبو ذر الغفاري

أبو ذر: جندب بن جنادة بن سكن المتوفى سنة (٣١هـ) - (٣٢هـ) بالريذة، هو رابع الإسلام، والمعذب في سبيل نشر الدعوة الإسلامية، وهو الزاهد المشهور الصادق اللهجة، الذي قال فيه رسول الله ﷺ وآله: ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء، أصدق لهجة من أبي ذر<sup>(١)</sup>.

وأخرج الترمذي بلفظ: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر شبيهه عيسى بن مريم.

وهذا الحديث مشهور رواه جماعة وخرجه الحفاظ

(١) الإصابة لابن حجر ٤: ٦٤.

كالترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وأبو نعيم، وغيرهم<sup>(١)</sup>. وكان أبو ذر هو رابع الإسلام، وأول من جهر في الدعوة، وأعلن الإسلام بين قومه، وفي مكة حتى ناله العذاب، وهو ممن أمر الله تعالى نبيه ﷺ وآله بحبه كما عن بريدة: عن النبي ﷺ وآله أنه قال: إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان. أخرجه الترمذي في صحيحه<sup>(٢)</sup>، وابن حجر في الإصابة<sup>(٣)</sup>، وأبو نعيم في الحلية<sup>(٤)</sup>، وأبو عمر في الاستيعاب<sup>(٥)</sup> وغيرهم.

وقال النبي ﷺ وآله: أبو ذر في أمتي على زهد عيسى ابن مريم<sup>(٦)</sup>. وقال عليّ السلام: أبو ذر وعاء مليء علماً ثم

(١) انظر صحيح الترمذي ٢: ٢٢١، ومستدرک الحاكم ٣: ٣٤٢.

(٢) صحيح الترمذي ٥: ٦٣٦ ح ٣٧١٨.

(٣) الإصابة ٧: ١٠٥ ح ٩٨٧٧.

(٤) حلية الأولياء ١: ١٩٠.

(٥) الاستيعاب ٢: ٤٢٣.

(٦) انظر أسد الغابة ٥: ١٨٧.

أوكئ عليه<sup>(١)</sup>.

وروى ابن عبد البر عن الأعمش بسند عن عبد الرحمن بن غنم قال: كنت عند أبي الدرداء إذ دخل رجل من أهل المدينة فسأله أبو الدرداء فقال: أين تركت أبا ذر؟ فقال: بالربذة.

فقال أبو الدرداء: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو أن أبا ذر قطع مني عضواً ما هجته لما سمعته من رسول الله يقول فيه<sup>(٢)</sup>.

وأخرج الطبراني من طريق ابن مسعود مرفوعاً: من سره أن ينظر إلى شبه عيسى خلقاً فلينظر إلى أبي ذر<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

والأحاديث في فضله وزهده وعلمه كثيرة، ومواقفه في الذب عن الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشهورة لا تحصى بهذه العجالة.

وبمزيد الأسف أن ذلك الرجل المجاهد قد وصفوه بما

(١) الإصابة ٤: ٢٤، وأسد الغاية ٥: ١٨٧.

(٢) الاستيعاب ١: ٢١٧.

(٣) الاستيعاب ١: ٢١٦.

لا يليق به، وأصبح ممن تستهويه الدعايات الكاذبة فيكون ممن لفته ابن سبأ واستهواه، وصار ينطق بلسانه ويعبر عن فكره كما هو منطوق أسطورة ابن سبأ.

فأين حمل الأخبار أو الأحاديث التي فيها حمل على الصحابة، على غير الوجه التي تدل عليه؟ وكأن أبا ذر لا يشمل ذلك، مع أنهم صدقوا في حقه من لا يصدق، كيف يكون أبو ذر يحمل فكرة ابن سبأ ويدعو لها وهو الصادق للهجة؟ وفي ذلك نصر لليهود، بأن يميل إليهم رجل وصفه رسول الله بالصدق والأمانة والزهد!!.

### عمار بن ياسر

أبو اليقظان عمار بن ياسر المقتول في صفين سنة (٣٦هـ).

وكان عمار بن ياسر قد عذب هو وأبوه وأمه في أول الدعوة الإسلامية وتمسكوا بإسلامهم، رغم ما واجهوا من المحن والبلاء.

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: صبراً آل

ياسر موعدكم الجنة، صبراً آل ياسر موعدكم الجنة<sup>(١)</sup>.  
وقد وردت عن صاحب الرسالة الأعظم كلمات الثناء  
على عمار مما يدل على عظيم منزلته، وجلالة قدره  
كقوله ﷺ: ملئ عمار إيماناً إلى أخصم قدميه. وفي  
حديث عائشة تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: عمار  
ملئ إيماناً إلى مشاشه.

وأخرجه ابن ماجه وأبو نعيم من طريق هاني بن هابي  
قال: كنا عند عليّ بن أبي طالب فدخل عليه عمار فقال: مرحباً  
بالطيب المطيب، سمعت رسول الله ﷺ يقول: عمار ملئ  
إيماناً إلى مشاشه<sup>(٢)</sup>.

وعن خالد بن الوليد قال: كان بيني وبين عمار كلام  
فأغلظت، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلما جئت رفع رسول  
الله ﷺ رأسه، فقال ﷺ: من عادى عماراً عاداه الله، ومن  
أبغض عماراً أبغضه الله<sup>(٣)</sup>. قال خالد فما زلت أحبّه  
يومئذٍ.

وقد حث النبي ﷺ على اتباع عمار عند نزول الفتن،  
وأنّ عماراً لا يكون إلا مع الحق.

روى البيهقي عن الحاكم وغيره بسند عن ابن مسعود  
قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: إذا اختلف الناس  
كان ابن سمية مع الحق<sup>(١)</sup>.

وجاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: إن الله قد  
آمننا أن يظلمنا، ولم يؤمننا أن يفتنا، رأيت إذا نزلت فتنة  
كيف أصنع؟ قال ابن مسعود: عليك بكتاب الله. فقال  
الرجل: رأيت أن جاء قوم كلهم يدعون إلى كتاب الله؟  
فقال ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا  
اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق<sup>(٢)</sup>.

ولما احتضر حذيفة بن اليمان وقد ذكر الفتنة قالوا له:  
إذا اختلف الناس بمن تأمرنا؟ قال: عليكم بابن سمية فإنه  
لن يفارق الحق حتى يموت، أو قال: فإنه يدور مع الحق  
حيث دار<sup>(٣)</sup>.

(١) تاريخ ابن كثير ٧: ٢٧٠.

(٢) تاريخ ابن كثير ٧: ٢٧٠.

(٣) الاستيعاب ٢: ٤٨٠.

(١) سيرة ابن هشام ١: ٣٤٢، وحلية الأولياء ١: ١٤١.

(٢) انظر الإصابة ٢: ٥١٢.

(٣) الإصابة ٢: ٥١٢. والاستيعاب بهامش الإصابة.

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن النبي ﷺ : أن عماراً مع الحق والحق معه، يدور مع الحق أينما دار، وقاتل عمار في النار<sup>(١)</sup>.

وقد اشتهر قول النبي ﷺ : بأن عماراً تقتله الفئة الباغية. وقد ورد هذا الحديث من طرق متعددة رواه جماعة من الصحابة منهم: عثمان بن عفان، وعائشة أم المؤمنين، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر بن سمرة، وعبد الله بن مسعود وغيرهم ﷺ.

ومنهم معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وأبو الغادية قاتل عمار.

وكان الناس يعرفون ذلك، ولكن معاوية أول هذا الحديث تأويلاً باطلاً ليتستر بذلك عن المؤاخذة عندما قتل عماراً وارتبك جيش الشام، وعلموا أنهم الفئة الباغية على لسان النبي ﷺ وآله.

فلجأ معاوية إلى حيلة تؤثر على البسطاء السذج فقال: نحن لم نقتل عماراً وإنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا.

(١) طبقات ابن سعد ٣: ١٨٧ ط ليدن.

وهذا من حيل ابن العاص ودهائه، وقد أثرت هذه المغالطة أثرها على ضعفاء النفوس.

يقول ابن القيم الجوزية تلميذ ابن تيمية: ومن التأويل الباطل تأويل أهل الشام قول النبي ﷺ لعمار: تقتلك الفئة الباغية. فقالوا: نحن لم نقتله إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا. وهذا التأويل مخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الذي باشر قتله، لا من استنصر به، ولهذا ردّ عليهم من هو أولى بالحق والحقيقة منهم، فقال: أفيكون رسول الله ﷺ وأصحابه هم الذين قتلوا حمزة والشهداء معه حتى أوقعوهم تحت سيوف المشركين؟<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وإن الاستمرار في مناقب عمار وذكر مواقفه وما ورد فيه من أحاديث وما نزل فيه من آيات لا يتسع المقام لاستطرادها، وليس غرضنا أن نترجم له هنا.

**إنّ الشيء الذي نودّ أن نقوله: إن من أعظم الجرأة على الله ورسوله أن ينسب لهذا الرجل الذي بدأ حياته في**

(١) الصواعق المرسلّة لابن قيم الجوزية: ١٠.

الجهاد وملاقاة العذاب وختمها في الشهادة، دفاعاً عن الإسلام، واتباعاً لحق وإحقاقه، مثل هذه الإساءات، أو يوصف بأنه ممن استهواه ابن سبأ فسار في ركابه وكان من دعائه؛ حتى يسلم خصومه من المؤاخذات ويتبرعوا مما ارتكبوه من مخالفات؟

وليت أنهم استدلوا بما يوجب الشبهة في ذلك فضلاً عن الجزم بالحكم فيما وصفوه فيه، فرحم الله عماراً، فلقد لزم الحق وحارب الباطل، ومات شهيداً بسيف الفئدة الباغية كما أخبر الرسول المعظم ﷺ وآله.

إن الذين وصفوا عماراً بما وصفوه من اتباع ابن سبأ قد ارتكبوا إثماً لا يغتفر، وقد ردوا على رسول الله ﷺ وآله أقواله في عمار.

وكذلك جنائتهم بحق الصحابي الجليل زيد بن صوحان فجعلوه على رأس الدعاة لابن سبأ؛ ومن الخير أن نشير إلى زيد بن صوحان بموجز من البيان إيضاحاً لما قد يتوهم صحة ما قاله أولئك المفترون في حقه.

## زيد بن صوحان

زيد بن صوحان بن حجر بن الحارث أبو سلمان

العبدى المقتول سنة (٣٦هـ)، وقد سمّاه رسول الله ﷺ وآله بزيد الخير.

وكان زيد ممن يصوم النهار ويقوم الليل، وإذا كانت ليلة الجمعة أحيهاها.

وأخرج ابن حجر وابن سكن، وابن أبي شيبه وغيرهم أنّ النبي ﷺ وآله أخبر عن زيد بن صوحان بأنه يسبق عضو من أعضائه الجنة. وقد قطعت يده في حرب المشركين وقيل في نهاوند<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عبد البر: روى عن النبي ﷺ وآله من وجوه: أنه كان في مسير له فهوم فجعل يقول: زيد وما زيد، زيد جندب وما جندب، فسئل عن ذلك؟

فقال ﷺ وآله: رجلان من أمتي أما أحدهما فتسبقه يده أو قال: بعض جسده إلى الجنة، وأما الآخر فيضرب ضربة يفرق فيها بين الحق والباطل.

قال أبو عمر: أصيبت يد زيد يوم جلولاء ثم قتل يوم الجمل مع علي الكليلا، وجندب بن كعب قاتل

(١) تهذيب ابن عساکر ٣: ٤١٠، والإصابة ١: ٢٥٠ في ترجمة جندب بن كعب.

الساحر... إلخ<sup>(١)</sup>، وقد شهد كعب حرب الجمل مع عليّ  
عليه السلام .

وكان زيد وجيهاً مقداماً، وقد وفد على سيدنا عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه فأكرمه، وجعل يرحل لزيد بيده، ويطأ على  
ذراع راحلته ويقول: يا أهل الكوفة، هكذا فاصنعوا بزيد.  
ولمّا أراد زيد أن يركب دابته أمسك عمر بركابه، ثم  
قال لمن حضره: هكذا فاصنعوا بزيد وإخوته  
وأصحابه<sup>(٢)</sup>.

وكان سلمان يقدّمه للصلاة والخطابة وهو أمير،  
وأخرج الحافظ وابن عدي عن عليّ عليه السلام قال، قال  
رسول الله ﷺ وآله: من سرّه أن ينظر إلى من يسبقه  
بعض أعضائه إلى الجنة فليُنظر إلى زيد بن صوحان<sup>(٣)</sup>.  
قال ابن عساكر: ورواه الخطيب البغدادي، وأبو يعلى،  
وقال: قطعت يده في جهاد المشركين، وعاش بعد ذلك

(١) الاستيعاب ١: ٥٦٠.

(٢) ابن عساكر ٦: ١١.

(٣) كنز العمال ١١: ٦٨٥.

دهراً حتى قتل يوم الجمل<sup>(١)</sup>.

ولمّا قتل زيد أوصى بأن يدفن في ثيابه، وقال قبل أن  
يقتل: إني رأيت يداً خرجت من السماء تشير إليّ أن  
تعال، وأنا لاحق بها يا أمير المؤمنين.  
\* \* \*

ومهما يكن من أمر فإننا نأسف للأسف الشديد لغفلة  
كثير من الكتاب الذين تناولوا البحث عن التاريخ  
الإسلامي، ولم يقفوا أمام هذه الأسطورة موقف الباحث  
المنتبث، وتساهلوا في نقلها والتعليق عليها بما يزيد  
جذورها تشبثاً في المجتمع، ويضاعف شرّها على الأمة  
وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

ولو رجعوا إلى الواقع لوجدوا أنفسهم أمام صورة  
جامدة منحوتة بيد الأغراض السياسية لتحقيق أهدافهم في  
تضليل الناس بأوهام باطلة تنشر هنا وهناك، وتملاً أوهام  
الصغار والكبار بمشاعر لا أصل لها.

ونحن نأمل أن تدرس هذه القصة وغيرها من  
الخرافات التي اختفى من ورائها النزاع السياسي

(١) تاريخ ابن عساكر ٦: ١١.

لا تتجاوز التعصب أو التساهل في النقل، بل دراسة تقليد لا تعتمد على تحقيق، وملاحظة للأُمور الواقعية. إنهم ينظرون إلى الحوادث بمنظار غيرهم من الذين يحوِّرون الحقائق، ويبدلون لها ثياب تلك القوالب التي يفرضونها فرضاً وهي قوالب أفكار لا تمت إلى الواقع بشيء، بل تخيلات وهمية ترسم لنا صورة الاندفاع وراء مضللات العاطفة، ومرديات التعصب الأعمى.

وقد أشرنا سابقاً إلى ضرورة الالتفات إلى الخطر الذى يحدث بنا من أثر ما بيثه أولئك المستشرقون من سموم الفرقة، بضروب مختلفة، فى تحطيم بناء وحدة المسلمين، والحيلولة بينهم وبين تمسكهم بتعاليم دينهم، ليقموا على أنقاضها معاقل تضمن لهم تنفيذ ما يطلبه خصوم الإسلام، وتحقيق ما يرجونه.

**ولا نحيد عن الواقع إن قلنا:** إن الاستشراق أصبح طريقاً ينفذ منه المستعمرون لأغراضهم، ووسيلة من وسائل سيطرتهم على الشعوب المسلمة؛ وقد رأينا كيف كانوا يتوارون وراء البحث عن الإسلام لينفتوا سمومهم، ويحققوا أهدافهم.

والصراع العقائدى دراسة واقعية على ضوء التحقيق العلمى المجرد من التعصب والتحيز؛ ليظهر الحق والحق أحق أن يتبع. وأن تلك الأباطيل لا تقف أمام الواقع بل هى أشباح خيالية لا بد لها من الزوال. وإنا لو اتقون بأنها لن تدوم؛ فهى سحب تتجلى، وعقبات تندك، وحجب ترفع، ما دام للعلم كلمته، وللعدل حكمه.

إننا نكتب للعلم وللعدل، وليس أجمل بالمرء من أن يتكلم على موازين العلم، ولا أبهى من العدل فى الحكم بعد أن يعرفها العلم، فالحكم على الشيء قبل معرفته خطأ لا يغتفر.

## خلاصة البحث

هذه دراسة قدّمناها باختصار عن أثر المستشرقين فى ثقافتنا الإسلامية وتاريخنا الذى نستمد منه معلومات أسلافنا الماضين.

وقد رأينا بهذه العجالة كيف كانت دراسة أولئك الكتاب، وأنها لم تكن دراسة تتركز على أسس علمية، وقواعد منطقية، وأُمور واقعية، بل كانت دراسة محدودة



كما اتضح لنا إعجاب كثير من الكتاب بأساليبهم الخداعة، وألفاظهم البراقة، فنقلوها كما هي بدون تمحيص، بل اجتروا آراءهم وسكبوها في أبحاثهم، ولم يجعلوا للبحث عن الواقع محلاً، ولم يحفلوا بما يتصف به أولئك من التعصب على الإسلام.

وإننا لندرجو أن يتنبه الكتاب لخطر تلك الآراء، وأضرار تلك الأبحاث التي يشوبها الخلط والخبط والتشويه والتمويه.

وقد تعرضنا هنا- وفي الكتابات السابقة- لمناقشة بعض الكتاب- وخصوصاً ذيول الوهابية- الذين تناولوا الشيعة بما لا يتفق مع الواقع، وتهجموا عليهم دونما إنصاف وتدبر.

ولم نكن في مناقشتنا قد جنينا على أنفسنا بإهمالها أو إفساح لها المجال في ميدان العاطفة والتأثر، ممّا وقفنا عليه من عبارات الغمز والطعن والقول بالباطل، ولم نتخل عن المنهج الذي نهجناه وهو الاستقامة في النقد والالتزان في الرد.

وقد خفّ وزن البعض فأنحدروا إلى مستوى

المهاترات والجدل العقيم، ويريدون أن يحشروا ألفاظاً فارغة في تفتيق التّهم؛ وقد أعرضنا عن أقوالهم وأقيناها في سلة المهملات.

**وفي الختام نقول:** لقد ذهب الزمن بما فيه ومرت الحوادث بما فيها من آلام، ومضى زمن تلاعب ذوى الأغراض بمقدرات الأمة، وتكالبهم على السيادة بوسائل التفرقة بين صفوف الأمة.

ولقد فتك داء الفرقة بجسم الأمة ولم تنل من ذلك إلاّ الخسارة والدمار؛ ومن الله نسأل أن يوحد كلمتهم ويجمع شملهم، وأن تنمو بينهم روح المحبة والتسامح ويحصل بينهم كلّ ما يوصلهم إلى رضا الله وإلى سعادة الأمة.. إنّه سميع مجيب.

## الفصل الرابع

### المسح على الأرجل في الوضوء

#### مقدمة:

لقد اختلف المسلمون في أمورٍ من شؤون العقيدة وجوانب الشريعة، والمنتبع لهذه الاختلافات، يلاحظ أن بعضها مما يُتوقع ظهوره، لأن موضوعاتها متشابكة ومعقدة، وتتطوى على ملابسات كثيرة، بحيث لا يتيسر لكل أحد من الناس الخوض فيها، فإذا خاض فيها من ليس أهلاً لها، ظهر الاختلاف والتبس الأمر على الناس، وخفيت الحقيقة، مثل مسألة الجبر والتفويض، ومسألة خلق القرآن، ومسألة المعاد الجسماني، وأكثر مسائل العقيدة من هذا النوع.

فلو وقفت ظاهرة الاختلاف بين المسلمين عند هذا النوع من المسائل التي للخلاف فيها مناشئ مألوفة لما كانت هذه الظاهرة مثيرة للاستفهام والتساؤل. لكن المنتبع لها يجدها قد تجاوزت هذا الحد ودخلت في أمور يُستبعد فيها الخلاف، كالاختلاف في كيفية الوضوء، والخلاف في

أن البسمة جزء من السورة في الصلاة أم لا؟ والخلاف في حال اليدين أثناء الصلاة، وأمثال ذلك من الأمور التي كانت مورداً لعمل النبي ﷺ بنحو يومي متكرر وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً، وبمرأى ومسمع من المسلمين، فإن الخلاف في مثل هذه الأمور يشكل ظاهرة غريبة تستحق المزيد من البحث والتحقيق على الصعيد التاريخي من أجل التوصل إلى العامل الحقيقي الذي كان وراء ظهور هذه الاختلافات غير الطبيعية، ويشكل البحث التاريخي فيها مقدمة ضرورية للبحث الفقهي.

ومسألة حكم الرجلين في الوضوء من حيث المسح أو الغسل من جملة هذه المسائل التي يفترض وضوحها وعدم وقوع الخلاف فيها، لكنها وخلافاً للمتوقع كانت معركة الآراء بين الفقهاء، والمدارس الفقهية. بين قائل بوجوب المسح- وهم الإمامية، وعليه ابن عباس<sup>(١)</sup>- وقائل بوجوب الغسل- وهم بعض أئمة أهل السنة<sup>(٢)</sup>-

(١) انظر الفقه على المذاهب الأربعة ومذهب أهل البيت ١: ١٢٢ ط دار الثقلين.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٥٤.

وقائل بالتخيير - محمد بن جرير الطبري، والحسن البصري، فيما نقله الرازي وغيره عنهما<sup>(١)</sup> - وقائل بوجود الجمع بينهما في الوضوء، وعليه داود بن علي الظاهري، والناصر للحق من الزيدية<sup>(٢)</sup>.

### مع آية الوضوء أولاً:

وقبل الورود في بحث هذه الآراء وأدلتها، لابد من إيراد آية الوضوء الوحيدة في القرآن الكريم وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾<sup>(٣)</sup>.

يقول الشيعة الإمامية: وهذه الآية تتضمن بحثاً فقهية من جهات عديدة ترتبط بأجزاء الوضوء، ومنها الجزء الأخير المتمثل بحكم القدمين، فالآية تخاطب المكلفين وترسم لهم كيفية الوضوء، وتبين أن الأعضاء التي يقع

(١) التفسير الكبير ١١: ١٦٦.

(٢) التفسير الكبير ١١: ١٦٦.

(٣) المائدة: ٦.

عليها الوضوء من بدن الإنسان على قسمين: قسم يُغسل وآخر يُمسح، أما القسم المغسول، فهو قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، وأما القسم الممسوح، فهو قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾. وهكذا فالآية تشتمل على وضوح تام فيما يرتبط بحكم القدمين ووظيفتهما الوضوئية، فهما من القسم الممسوح الذي جاء بعد قوله: وامسحوا، ولو كان من القسم المغسول لكان من المناسب مجيئهما بعد قوله: فاغسلوا، وهذا من بديهيات اللغة، وهو ثابت لا يتغير سواء قرئت كلمة (أرجلكم) الواردة في الآية بالجر أو بالنصب، فإنها إن قرئت بالجر، كما هي قراءة ابن كثير وحمزة وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر عنه، فقراءة الجر معطوفة على الرءوس، وهما معاً يشكلان القسم المحكوم بالمسح من أعضاء الوضوء، وإن قرئت بالنصب، كما هي قراءة نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه، فإنها توجب المسح أيضاً، لأن كلمة (رؤوسكم) في قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ هي في محل نصب لكنها مجرورة بالباء، ثم عطفت آية الأرجل

على الرعوس، فقالت: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فأصبحت الأرجل معطوفة على محل الرعوس، فجاز قراءتها بالنصب عطفًا على الرعوس، وجاز قراءتها بالجر عطفًا على الظاهر. وهذا ما ذكره الفخر الرازي وعقب عليه، بقوله: وهذا مذهب مشهور للنحاة<sup>(١)</sup>.

### أدلة القائلين بالغسل:

القول بالغسل هو الذى مضت عليه المذاهب الأربعة، واستدلوا عليه بأدلة عديدة، منها ما ذكره الفخر الرازي فى تفسيره، حيث كتب يقول: (إن الأخبار الكثيرة وردت بإيجاب الغسل، والغسل مشتمل على المسح، ولا ينعكس، فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط، فوجب المصير إليه،

(١) التفسير الكبير ١١: ١٦١.

وتوضيح أن «امسحوا برؤوسكم» فى محل نصب لكنها مجرورة بالباء، وإن كان يحتاج إلى توضيح وإسناد من كلمات النحاة وشواهد من الشعر والنثر، ولكنها مذكورة فى الكتب المفصلة المخصصة لهذا البحث، فراجع: الوضوء فى الكتاب والسنة للمرحوم الشيخ نجم الدين العسكرى، وكتاب وضوء النبي ﷺ، للدكتور السيد محمد على الشهرستانى.

وعلى هذا الوجه يجب القطع بأن غسل الرجل يقوم مقام مسحها.

وإن فرض الرجلين محدود إلى الكعبين، والتحديد إنما جاء فى الغسل لا فى المسح...<sup>(١)</sup>.

وقال القرطبي: (إن الفرض فى الرجلين الغسل دون المسح، وهذا مذهب الجمهور والكافة من العلماء، وهو الثابت من فعل النبي ﷺ، واللازم من قوله فى غير ما حديث، وقد رأى قوماً يتوضئون وأعقابهم تلوح، فنادى بأعلى صوته: (ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء). ثم إن الله حدها، فقال: إلى الكعبين، كما قال فى اليمين: إلى المرافق، فدلّ على وجوب غسلهما...<sup>(٢)</sup>.

وقال محمد رشيد رضا: (وأما الجمهور فقد أخذوا بقراءة النصب وأرجعوا قراءة الجر إليها، وأيدوا ذلك بالسنة الصحيحة وإجماع الصحابة، ويزاد على ذلك أنه هو المنطبق على حكمة الطهارة، وادعى الطحاوى وابن حزم أن المسح منسوخ، وعمدة الجمهور فى هذا الباب

(١) التفسير الكبير ١١: ١٦٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦: ٩١.

ابن كثير وحمزة وأبي عمرو وعاصم - فدلالاتها على وجوب مسح الأرجل تكون من أوضح الواضحات ، فالآية جمعت بين الرعوس والأرجل بحكم واحد هو المسح، وجعلت الأرجل معطوفة على الرعوس ومحكومة بحكمها.

ورغم وضوح هذه النتيجة، وتسليم عدد من الأعلام بها كالفخر الرازي في تفسيره للآية، وابن حزم في المحلى، نجد على بن محمد الماوردي يدعى بأن القراءة المخفوضة: (يمكن حملها على أحد وجهين، أحدهما على مسح الخفين فيكون اختلاف القراءتين على اختلاف المعنيين، الثاني: أنه محمول على عطف المجاورة دون الحكم...<sup>(١)</sup>) بمعنى أن القراءة المخفوضة لا تحتكم الحكم بالمسح. وهو ادعاء غريب جداً، فإن الظاهر من ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ المباشرة بين الأيدي والأرجل، والمباشرة لا تتم مع وجود الخف، وحينئذٍ يحتاج الفقيه في مسألة الخف إلى دليل آخر غير هذه الآية، ولو كان الأمر كما يدعى لكان واجباً على من آمن

(١) الحاوي الكبير ١: ١٢٥.

عمل الصدر الأول، وما يؤيده من الأحاديث القولية، وأصحها حديث ابن عمر في الصحيحين، قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفره فأدركنا وقد أرقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا، قال فنأدى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار، مرتين أو ثلاثاً...<sup>(١)</sup>.

هذه خلاصة ما استدلل به القائلون بالغسل على رأيهم.

### أدلة القائلين بالمسح:

والقائلون بأن حكم الأرجل في الوضوء هو المسح هم الإمامية، وأدلتهم على ذلك هي آية الوضوء والأخبار الكثيرة، فضلاً عن أخبار أئمة أهل البيت (عليهم السلام). وآية الوضوء هي قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...﴾ (المائدة: ٦)، والاستدلال بالآية تارة يكون على أساس قراءة الجر في (وأرجلكم) وأخرى على أساس قراءة النصب، فإن قرئت بالجر - كما هي قراءة

(١) تفسير المنار ٦: ٢٢٨. وسيأتى الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

بالقراءة المخفوضة لأن لا يمسح رجله ولا يغسلها بل يلبس الخف ويمسح عليه، وسيرة المتشركة جرت على مسح الرجلين أو غسلهما. وليس فيها لزوم لبس الخف والمسح عليه. ثم لماذا يرتكب الفقيه هذا التأويل البعيد للآية ويهجر التأويل الطبيعي الذي يساعد عليه العرف والسيرة واللغة؟ هذا في الاحتمال الأول الذي احتمله.

أما الاحتمال الثاني فهو مردود من قبل اللغويين والمفسرين معاً. وقد أجاد الفخر الرازي في ردّه حيث قال: (فإن قيل لم لا يجوز أن يقال هذا كسر على الجوار، كما في قوله: جحر ضب خرب، وقوله: كبير أناس في بجاد مزمل؟ قلنا: هذا باطل من وجوه، الأول: أن الكسر على الجوار معدود في اللحن الذي قد يتحمل لأجل الضرورة في الشعر. وكلام الله يجب تنزيهه عنه، وثانياً: إن الكسر إنما يصر إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس... وفي هذه الآية الأمن من الالتباس غير الحاصل، وثالثها: إن الكسر بالجوار إنما يكون بدون حرف العطف، وأما مع حرف العطف فلم تتكلم به

العرب...<sup>(١)</sup>)، ولذا آمن الفخر الرازي بأن قراءة الجرح تقتضى كون الأرجل معطوفة على الرؤوس، وإنه كما وجب المسح في الرأس فكذلك في الأرجل... هذا على قراءة الجرح.

أما قراءة النصب فهي الأخرى توجب الحكم بالمسح، وذلك كما قال الرازي: لأن قوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ فرعوسكم في محل النصب ولكنها مجرورة بالباء، فإذا عطفت الأرجل على الرؤوس جاز في الأرجل النصب عطفاً على محل الرؤوس والجرح عطفاً على الظاهر، وهذا مذهب مشهور للنحاة. إذا ثبت هذا، فنقول: ظهر أنه يجوز أن يكون عامل النصب في قوله (وأرجلكم) هو قوله: (وامسحوا) ويجوز أن يكون قوله: (فاغسلوا)، لكن العاملان - كذا - إذا اجتمعا على معمول واحد كان إعمال الأقرب أولى، فوجب أن يكون عامل النصب في قوله: (وأرجلكم) هو قوله: (وامسحوا) فثبت أن قراءة النصب (وأرجلكم) بنصب اللام توجب المسح أيضاً...<sup>(٢)</sup>.

(١) التفسير الكبير ١١: ١٦١ طبع دار الكتب العلمية.

(٢) التفسير الكبير ١١: ١٦١.

وأن إيجاب الغسل في هذه القراءة لا يتم إلا على مذهب نحوى باطل، وهو عطف الأرجل على الوجوه، وهو باطل لوجود الفاصل بينهما، وأن المعطوف عليه إذا تعدد أُختير الأقرب وهو الرؤوس في الآية، وتُرك الأبعد وهو الوجوه.

ومن هنا آمن الفخر الرازى بأن آية الوضوء توجب المسح، لكنه ردّ هذا الحكم ولم يسلم به محتجاً بوجوه ذكرها في تنمة كلامه السابق وهي:

١- الأخبار الواردة بإيجاب الغسل، وهي أخبار بعضها غير دال على الغسل، وهناك ما يعارضها ويوافق حكم المسح، ومع التعارض لا بد من القول - على الأقل - بالتساقت والرجوع إلى الكتاب العزيز. وقد رد السيد عبد الحسين شرف الدين على هذا الوجه، حيث كتب يقول:

### أخبار الغسل قسماً:

منها ما هو غير دال عليه، كحديث عبد الله بن عمرو ابن العاص إذ قال:- كما في الصحيحين - تخلف عنا النبي ﷺ في سفر سافرناه معه فأدر كنا وقد حضرت صلاة العصر فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى: (ويل

للأعقاب من النار)<sup>(١)</sup>.

وهذا لو صح لاقتضى المسح، إذ لم ينكره ﷺ عليهم بل أقرهم عليه كما ترى، وإنما أنكر عليهم قذارة أعقابهم<sup>(٢)</sup>، ولا غرو فإن فيهم أعراباً جهلة بوالين على أعقابهم ولاسيما في السفر فتوعدهم بالنار، لئلاً يدخلوا في الصلاة بتلك الأعقاب المنتجسة.

ومنه ما هو دال على الغسل، كحديث حمران مولى عثمان بن عفان ﷺ، إذ قال: رأيت عثمان وقد أفرغ على يديه من إنائه فغسلهما ثلاث مرات، ثم أدخل يمينه في الوضوء ثم تمضمض واستنشق واستنثر... الحديث<sup>(٣)</sup>، وقد جاء فيه ثم غسل كل رجل ثلاثاً. ثم قال: رأيت النبي ﷺ يتوضأ نحو وضوئى.

ومثله حديث عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري،

(١) هذه الكلمة - ويل للأعقاب من النار - جاءت أيضاً في حديث كل من عمر وعائشة وأبي هريرة ﷺ صحيحة على شرط الشيخين.

(٢) وهذا ما آمن به محمد رشيد رضا في تفسير المنار أيضاً ٦: ٢٨٨. ومرّ الخبر عن ابن عمر.

(٣) صحيح البخارى ١: ١٤٠، باب ١٢٠.

وقد قيل له: توضأ لنا وضوء رسول الله ﷺ فدعا بإناء فأكفأ منها على يديه... الحديث<sup>(١)</sup> وفي آخره ثم غسل رجليه إلى الكعبين. ثم قال: هكذا كان وضوء رسول الله ﷺ.. غير ذلك من أخبار جاءت في هذا المعنى.

### وفيها نظر من وجوه:

**أحدها:** أنها جاءت مخالفة لكتاب الله عز وجل ولما أجمعت عليه أئمة العترة الطاهرة<sup>(٢)</sup> والكتاب والعترة ثقلا رسول الله ﷺ لن يفترقا، أبداً ولن تضل الأمة ما إن تمسكت بهما، فليضرب بكل ما خالفهما عرض الجدار. وحسبك في إنكار الغسل ووهن أخباره ما كان من حبر الأمة وعيبة الكتاب والسنة عبد الله بن عباس إذ كان يحتج للمسح فيقول<sup>(٣)</sup>: افترض الله غسلتين ومسحتين، ألا

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٣: ١٢١، كتاب الطهارة، باب آخر في صفة الوضوء.

(٢) أجمعوا (عليهم السلام) على وجوب المسح، وتلك نصوصهم في (وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة) وفي سائر المؤلفات في فقههم وحديثهم.

(٣) كما في ص ١٠٣ من الجزء الخامس من كنز العمال وهو الحديث ٢٢١٣.

ترى أنه ذكر التيمم فجعل مكان الغسلتين مسحتين وترك المسحتين.

وكان يقول<sup>(١)</sup>: الوضوء غسلتان ومسحتان<sup>(٢)</sup> ولما بلغه أن الربيع بنت معوذ بن عفراء الأنصارية تزعم أن النبي ﷺ توضأ عندها فغسل رجليه، أتاه يسألها عن ذلك وحين حدثته به، قال- غير مصدق بل منكرأ ومحتجاً- إن الناس أبوا إلا الغسل ولا أجد في كتاب الله إلا المسح<sup>(٣)</sup>.

**ثانيها:** إنها لو كانت حقاً لأربت على التواتر؛ لأن الحاجة إلى معرفة طهارة الأرجل في الوضوء حاجة عامة لرجال الأمة ونسائها، أحرارها ومماليكها، وهي

(١) كما في ص ١٠٣ من الجزء الخامس من الكنز، وهذا هو الحديث ٢٢١١.

(٢) ومنه أخذ الإمام الشريف بحر العلوم في منظومته الفقهية (درة النجف) إذ يقول:

إن الوضوء غسلتان عندنا ومسحتان والكتاب معنا

فالمسح للرأس وللرجلين والمغسل للوجه وللبيدين

(٣) أخرجه ابن ماجة فيما جاء في غسل القدمين (باب ٥٦) من الجزء الأول من سننه، وغير واحد من أصحاب المسانيد، وأيضاً توجد في كنز العمال ٩: ٤٣٢ ح ٢٦٨٣٧ مع اختلاف يسير.



حاجة لهم ماسة في كل يوم وليلة، فلو كان غير المسح المدلول عليه بحكم الآية، لعلمه المكلفون في عهد النبوة وبعده، وكان مسلماً بينهم، ولتواترت أخباره عن النبي ﷺ في كل عصر ومصر. فلا يبقى مجال لإنكاره ولا للريب فيه. ولما لم يكن الأمر كذلك، ظهر لنا الوهن المسقط لتلك الأخبار عن درجة الاعتبار.

**ثالثها:** إنَّ الأخبار في نوع طهارة القدمين متعارضة، بعضها يقتضى الغسل كحديثي حمران وابن عاصم وقد سمعتهما، وبعضها يقتضى المسح كالحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه<sup>(١)</sup>، ورواه كلٌّ من أحمد، وابن أبي شيبة، وابن أبي عمر، والبخاري، والطبراني، والماوردي، كلُّهم من طريق كلِّ رجاله ثقات<sup>(٢)</sup>. عن أبي الأسود بن عباد بن تميم، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ ويمسح على رجليه.

(١) نقله عنهم العسقلاني في الإصابة ١: ١٨٧، في ترجمة تميم بن زيد.

(٢) واصفهم بكونهم كلهم ثقات ابن حجر العسقلاني حيث أورد هذا الحديث في ترجمة تميم بن زيد من القسم الأول من الإصابة نقلاً عن ذكرناهم من أصحاب المسانيد.

وكالذي أخرجه الشيخ في الصحيح عن زرارة وبكير ابني أعين عن الباقر الكليلا أنه حكى وضوء رسول الله ﷺ فمسح رأسه وقدميه إلى الكعبين بفضل كفيه ولم يجد ماء<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عباس أنه حكى وضوء رسول الله ﷺ فمسح على قدميه<sup>(٢)</sup>.

وحيث تعارضت الأخبار، كان المرجع كتاب الله عز وجل لا نبغى عنه حولاً<sup>(٣)</sup>. هذا نص ما أفاده (قدس سره).

كما آمن ابن حزم بأن القرآن يحتم حكم المسح بالنسبة للرجلين في الوضوء، وقال: (إن القرآن نزل بالمسح) سواء قرأنا الآية بالخفض أو بالنصب، وأن جماعة من السلف قد قالوا بالمسح، منهم: الإمام على الكليلا، وابن عباس، والحسن، وعكرمة، والشعبي، وجماعة غيرهم،

(١) تهذيب الأحكام ١: ٥٦ ح ١٥٨.

(٢) مجمع البيان ٣: ٢٠٧.

(٣) مسائل فقهية ٩٢-٩٥.

وهو قول الطبري، ورويت في ذلك آثار<sup>(١)</sup>.

لكنه ذكر بعد ذلك خبر (ويل للأعقاب من النار) واعتبره ناسخاً للآية القرآنية، وقد اتضح أن هذا الخبر يؤيد الآية فكيف يكون ناسخاً لها؟ ويرد عليه أيضاً- كما ذكره الفخر الرازي- بأن نسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز<sup>(٢)</sup>.

٢- وذكر الفخر الرازي للقول بالغسل وجهاً آخر هو: إن الغسل مشتمل على المسح، ولا ينعكس، فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط، فوجب المصير إليه، وعلى هذا الوجه يجب القطع بأن غسل الرجل يقوم مقام مسحها. وردّ عليه السيد عبد الحسين شرف الدين بقوله: (وأما قوله بأن الغسل مشتمل على المسح فمغالطة واضحة، بل هما حقيقتان لغة وعرفاً وشرعاً<sup>(٣)</sup>)، فالواجب إذاً هو القطع

(١) المطى ٢: ٥٦-٥٧.

(٢) التفسير الكبير ١١: ١٦٣.

(٣) لأن الغسل مأخوذ في مفهومه سيلان الماء على المغسول ولو قليلاً، والمسح مأخوذ في مفهومه عدم السيلان والاكتفاء بمرور اليد على الممسوح.

بأن غسل الأرجل لا يقوم مقام مسحها.

لكن الإمام الرازي وقف بين محذورين: هما مخالفة الآية المحكمة ومخالفة الأخبار الصحيحة في نظره، فغالط نفسه بقوله: إن الغسل مشتمل على المسح، وأنه أقرب إلى الاحتياط، وأنه يقوم مقام المسح، ظناً منه بأنه قد جمع بهذا بين الآية والأخبار، ومن أمعن في دفاعه هذا وجدته في ارتباك، ولولا أن الآية واضحة الدلالة على وجوب المسح ما احتاج إلى جعل الغسل قائماً مقامه، فأمعن وتأمل ملياً<sup>(١)</sup>.

٣- ذكر الفخر الرازي وجهاً آخر للقول بغسل الرجلين في الوضوء وهو أن الآية جعلت حكم الرجلين محدود إلى الكعبين، وهذا التحديد ينسجم مع الغسل، لأن الكعبين عبارة عن العظمين النابتين من جانبي الساق، وقد مرّ أن هذا الوجه ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن أيضاً.

وقد تصدى السيد عبد الحسين شرف الدين (قدس سره) للإجابة عليه بقوله: (الكعبان في آية الوضوء، هما:

(١) مسائل فقهية: ٩٠.

قلت: ولو قال هنا إلى المرفقين لصحّ بلا إشكال، ويكون المعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى مرفقي كل منكم، فتنثية الكلمتين في الآية وجمعهما في الصحة سواء، وكذلك جمع إحداهما وتنثية الأخرى ولعل التقنن في التعبير قد اقتضاه.

هذا إذا كان الحاصل في كل رجل كعباً واحداً، أما إذا كان الحاصل في كل رجل كعبين فلا يبقى لكلامهم وجه، وقد أجمع علماء التشريح على أن هناك عظماً مستديراً مثل كعب البقر والغنم تحت عظم الساق حيث يكون مفصل الساق والقدم يسمى كعباً أيضاً<sup>(١)</sup>، وعليه، فمسح

(١) وقد ذهب محمد بن الحسن الشيباني والأصمعي إلى أن الكعب في آية الوضوء إنما هو هذا العظم تحت الساق. وكان الأصمعي، يقول: إن العظمين الناتئين في جانبي الساق يسميان المنجمين، وظن الرازي أن هذا هو مذهب الإمامية فرد عليهم بأن العظم المستدير الموضوع تحت الساق شيء خفي لا يعرفه إلا المشرحون بخلاف الناتئين في طرفي كل ساق فإنهما محسوسان (قال) ومناطق التكليف العامة يجب أن يكون أمراً ظاهراً لا خفياً. والجواب أن الرازي لما رأى الإمامية يمسحون إلى مفصل الساق ظنهم يقولون بما قاله الشيباني والأصمعي، ولم يدرك أن الكعب عندهم هو المفصل نفسه المحسوس المعلوم لكل أحد.

مفصلاً الساقين عن القدمين<sup>(١)</sup> بحكم الصحيح عن زرارة وبكير ابني أعين إذ سألا الباقر عليه السلام عنهما<sup>(٢)</sup> وهو الظاهر مما رواه الصدوق عنه أيضاً<sup>(٣)</sup> وقد نصّ أئمة اللغة على أن كل مفصل للعظام كعب<sup>(٤)</sup>.  
وذهب الجمهور إلى أن الكعبين هنا إنما هما العظام الناتان في جانبي كل ساق. واحتجوا بأنه لو كان الكعب مفصل الساق عن القدم، لكان الحاصل في كل رجل كعباً واحداً، فكان ينبغي أن يقول وأرجلكم إلى الكعاب، كما أنه لما كان الحاصل في كل يد مرفقاً واحداً، ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

(١) وقيل: هما قبتا القدمين، والأول أحوط وأقوى.

(٢) في حديث رواه الشيخ الطوسي بسنده الصحيح إليهما، وقد قالوا للإمام: فأين الكعبان؟ قال عليه السلام: ها هنا يعني المفصل دون الساق.

(٣) روى الصدوق عن الباقر عليه السلام وقد حكى صفة وضوء رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: ومسح على مقدم رأسه وظهر قدميه دون عظمي الساقين.

(٤) كعب الإنسان: ما أشرف فوق رسغه عند قدمه، وقال البعض: العظام اللذان في ظهر القدم، لسان العرب ١: ٧١٨، حرف الباء، مادة كعب. وفي المصباح المنير (١-٢): ٥٣٤، الكعب: العظم الناشز في جانب القدم عند ملتقى الساق والقدم فيكون لكل قدم كعبان.

كل رجل ينتهي إلى كعبين اثنين هما المفصل نفسه والكعب المستدير تحته. وفي تثنية الكعب في الآية دون المرفق نكتة لطيفة وإشارة إلى ما لا يعلمه إلا علماء التشريح. فسبحان الخلاق العليم الحكيم<sup>(١)</sup>.

وهكذا يبدو بوضوح أن اختيار فقه الجمهور للقول بالغسل قد أوقعهم في محنة التعارض مع القرآن الكريم، فراحوا يتأولون الوجوه البعيدة ويركبون كل صعب وذلول من أجل إثبات مدعاهم.

ومن جملة من أدلى بدلوه في هذا المضمار الزمخشري في تفسير الكشاف، وقد ذكر السيد عبد الحسين شرف الدين محاولته التوفيقية ثم أجاب عنها، فكتب يقول: ونفلس الإمام الزمخشري في كشافه حل هذه الآية إذ قال: (الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهى عنه، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها، قال): وقيل (إلى الكعبين) فجاء بالغاية إمطة لظن

(١) مسائل فقهية: ٩٨ - ٩٩.

ظان يحسبها ممسوحة، لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة<sup>(١)</sup>.

هذه فلسفته في عطف الأرجل على الرؤوس وفي ذكر الغاية من الأرجل، وهي كما ترى ليست في شيء من استنباط الأحكام الشرعية عن الآية المحكمة، ولا في شيء من تفسيرها، ولا الآية بدالة على شيء منها بشيء من الدوال، وإنما هي تحكم في تطبيق الآية على مذهبه بدلاً من استنباط المذهب من الأدلة، وقد أغرب في تكهنه بما لا يصغى إليه إلا من كان غسل الأرجل عنده مفروغاً عنه بحكم الضرورة الأولية، أما مع كونه محل النزاع فلا يعتنى به ولا سيما مع اعترافهم بظهور الكتاب في وجوب المسح. وحسبنا في ذلك ما توجيه القواعد العربية من عطف الأرجل على الرؤوس الممسوحة بالإجماع نصاً وفتوى<sup>(٢)</sup>.

ومن جملة المحاولات أيضاً قولهم: إن الحكم بالغسل هو المنطبق على حكمة الطهارة، وأن الطهارة هي

(١) تفسير الكشاف ١: ٦١١.

(٢) مسائل فقهية: ٩٢.

المبالغة في النظافة التي شرع الوضوء والغسل لأجلها<sup>(١)</sup>.  
 وواضح أن مثل هذا الجواب يتم عند من يقول بالاستحسان، أما الذي لا يقبل الاستحسان، كمصدر من مصادر التشريع فلا يكون تاماً عنده، بل هو لا يتم حتى عند من يرى الاستحسان، لأن الاستحسان عند القائلين به دليل عند فقد الدليل القرآني أو النبوي، والمفروض - كما يسلم به صاحب تفسير المنار<sup>(٢)</sup> - أن الدليل القرآني والنبوي موجودان في المسألة، فلا تصل النوبة إلى الاستحسان.

وقد ذكر السيد عبد الحسين شرف الدين هذه المحاولة وأجاب عليها، حيث يقول: (ربما احتج الجمهور على غسل الأرجل أنهم رأوه أشد مناسبة للقدمين من المسح، كما أن المسح أشد مناسبة للرأس من الغسل إذ كان القدمان لا ينقى دنسهما إلا بالغسل غالباً بخلاف الرأس فإنه ينقى غالباً بالمسح، وقد قالوا إن المصالح المعقولة لا يمتنع أن تكون أسباباً للعبادات المفروضة، حتى الشرع

(١) تفسير المنار ٦: ٢٢٨ - ٢٣٤.

(٢) محمد رشيد رضا.

لاحظ فيها معنيين، معنىً مصلحياً ومعنىً عبادياً، وعنوا بالمصلحة ما يرجع إلى الأمور المحسوسة، وبالعبادى ما يرجع إلى زكاة النفس.

فأقول: نحن نؤمن بأن الشارع المقدس لاحظ عباده في كل ما كلفهم به من أحكامه الشرعية، فلم يأمرهم إلا بما فيه مصلحتهم، ولم ينههم إلا عما فيه مفسدة لهم، لكنه مع ذلك لم يجعل شيئاً من مدارك تلك الأحكام منوطاً من حيث المصالح والمفاسد بآراء العباد، بل تعبدهم بأدلة قوية عينها لهم، فلم يجعل لهم مندوحة عنها إلى ما سواها. وأول تلك الأدلة الحكيمة كتاب الله ﷻ، وقد حكم بمسح الرؤوس والأرجل في الوضوء، فلا مندوحة عن البخوع لحكمه، أما نقاء الأرجل من الدنس فلا بد من إحرازه قبل المسح عليها، عملاً بأدلة خاصة دلّت على اشتراط الطهارة في أعضاء الوضوء قبل الشروع فيه، ولعلّ غسل رسول الله ﷺ رجليه - المدعى في أخبار الغسل - إنما كان من هذا الباب، ولعله كان من باب التبرّد، أو كان من باب المبالغة في النظافة بعد الفراغ من

الوضوء والله تعالى أعلم<sup>(١)</sup>.

ولو كان الأمر كما تشاء لنا أفكارنا لكان كما قال الإمام على عليه السلام: (كنت أرى أن باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما، حتى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح ظاهرهما)<sup>(٢)</sup> وفي رواية أخرى: (لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح ظاهر قدميه لظننت أن باطنهما أولى بالمسح من ظاهرهما)<sup>(٣)</sup>.

ومن جملة المحاولات: لإثبات أن حكم الأرجل هو الغسل لا المسح ما ذكره صاحب تفسير المنار من اعتماد الجمهور على إجماع الصحابة وعمل الصدر الأول<sup>(٤)</sup>، وهو أوهم من أن يذكر، فقد اتضح لك عما قليل أن فى الصحابة من عارض الغسل وعمل بالمسح، وقد اعترف صاحب المنار بذلك، حيث ذكر أن (القول بكل من الغسل والمسح مروى عن السلف من الصحابة والتابعين، ولكن

(١) مسائل فقهية: ٩٦.

(٢) مسند أحمد ١: ٩٥، سنن أبى داود، كتاب الطهارة، ح١٦٤.

(٣) وسائل الشيعة، أبواب الوضوء، باب ١٣ حديث ٩.

(٤) تفسير المنار ٦: ٢٢٨.

العمل بالغسل أعم وأكثر وهو الذى غلب واستمر<sup>(١)</sup>.

فأى إجماع على الغسل والقول بالمسح مروى عن السلف والتابعين؟ وأما قوله بأن العمل بالغسل أعم وأكثر فلا ينفع القائلين بالغسل، لأن التعميم والانتشار - على فرض التسليم به - قد يكون ناشئاً من عوامل سياسية، فإن الخليفة إذا اختار مذهباً عممه، وحث الرواة على الأخذ به.

ومن جملة المحاولات قولهم: إن المراد بمسح الرجلين غسلهما. قال القرطبي فى الجامع لأحكام القرآن: (قال ابن عطية: وذهب قوم ممن يقرأ بالكسر إلى أن المسح فى الرجلين هو الغسل) وعلق القرطبي على ذلك بقوله: (وهو الصحيح فإن لفظ المسح مشترك يطلق بمعنى المسح ويطلق بمعنى الغسل)<sup>(٢)</sup>.

وهذه من أسوأ المحاولات. وقد اكتفى صاحب المنار بالردّ عليه بقوله: (وهو تكلف ظاهر)<sup>(٣)</sup>، فأين الغسل من

(١) تفسير المنار ٦: ٢٨٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦: ٩٢.

(٣) المنار ٦: ٢٣٣.

المسح؟ ولو كان الأمر كما يقول من الناحية اللغوية للزم أن يكون المسح بمعنى الغسل عندما تكون هناك قرينة مساعدة، وهي مفقودة في الآية، بل الموجود في الآية قرينة معاكسة، وهي أن الآية الكريمة ذكرت الغسل ثم عقت عليه بذكر المسح، وهذا يعنى أنها في مقام التفصيل بين الأمرين<sup>(١)</sup>، ولو كان المراد بالمسح في الآية هو الغسل لوجب غسل الرأس أيضاً، فلماذا يفرق صاحب المحاولة بين الرأس والرجلين؟ وكيف يكون المسح في الرأس بمعنى المسح، والمسح للقدمين بمعنى الغسل؟ على أن كلامه لا يقتضى وجوب الغسل بل يقتضى التخيير بينه وبين المسح، فما الوجه في الحكم ببطلان المسح؟ ومما لاشك فيه أن هذه المحاولة تجعل مقتضى الاحتياط هو المسح لا الغسل، لأن الغسل تدور شبّهات من حوله بخلاف المسح.

**يقول الإمامية:** وهكذا يتضح بطلان القول بالغسل، وفشل كل المحاولات والأدلة الرامية لإثبات وجوبه

(١) يقول علماء الأصول: إن كل لفظ في كتاب الله تعالى له معنى ومدلول، ولا يقوم لفظ مقام لفظ آخر.

بالنسبة إلى القدمين في الوضوء.

### القول بالجمع والتخيير:

ويبقى هنا قولان في المسألة: قول بالجمع بين الوظيفتين، وقول بالتخيير بينهما.

**وجواب القول بالجمع:** أنه يجرى عند الاحتياط، والاحتياط يأتي عند الشك في الوظيفة الشرعية، فإذا قام الدليل على الوظيفة الشرعية، وتم إثبات المسح، ينتفى الشك، وكلما انتفى الشك انتفى الحكم بالجمع كوظيفة احتياطية.

**أما القول بالتخيير:** فيجرى بعد إثبات شرعية العملين معاً في الوضوء، فإذا ثبت لدى المكلف أن الغسل والمسح كلاهما عمل مشروع بالنسبة إلى القدمين، وأن آية الوضوء تدل على صحتها معاً، وأن النبي ﷺ قد عمل بهما معاً، تارة بالمسح وأخرى بالغسل، جاز لنا التخيير، ومع عدم إثبات ذلك لا يجوز لنا القول بالتخيير، إذ لا معنى لتخيير المكلف بين عملين أحدهما صحيح شرعاً والآخر لم تثبت صحته، وقد اتضح أن كل المحاولات الرامية لإثبات شرعية الغسل كوظيفة في الوضوء بالنسبة

إلى القدمين تهافتت أمام أدلة المسح.

فيبقى الحكم بالمسح هو المؤيد بالأدلة والسالم عن الإشكال.

### منشأ اختلاف الروايات:

ذكرنا في مقدمة هذا البحث أن مسألة حكم القدمين في الوضوء من المسائل التي تقتضى عدم ظهور الخلاف فيها، لكثرة ابتلاء المسلمين فيها زمن معاصرتهم للنبي ﷺ، وكونها وظيفة يومية متكررة عمل بها النبي ﷺ طيلة عقدين من الزمن أمام مرأى ومسمع من الصحابة. وهذه النقطة مما تحفز باتجاه البحث التاريخي الدقيق عن علل ظهور مثل هذه الاختلافات بين المسلمين.

وقد انكب أحد الباحثين على دراسة الظروف التاريخية التي أحاطت بهذه المسألة دراسة تحليلية معمقة انتهى من خلالها واعتماداً على شواهد وأدلة وقرائن تاريخية كثيرة على أن القول بغسل القدمين في الوضوء قد ظهر في أيام الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان ﷺ، وأنه هو المنشأ لذيوع وانتشار هذا الرأي بين المسلمين، فمن أراد التفصيل التاريخي في ذلك فعليه مراجعة هذا الكتاب الموسوم بـ(وضوء النبي من خلال ملابسات التشريع)

للسيد على الشهرستاني<sup>(١)</sup>.

### خلاصة البحث:

يقول الإمامية: إن آية الوضوء تحتم القول بوجوب مسح القدمين في الوضوء على كل التقادير، وهو الضروري في مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، وأن وضوء النبي ﷺ، والصحابة وسائر المسلمين كان على هذا النحو، وإن القول بغسل القدمين لا يرجع إلى أساس في الكتاب ولا السنة، وأنه قول ظهر في أيام الخليفة الثالث ﷺ.

وأهل السنة يعملون بالغسل الذي أمر به الخليفة الثالث ﷺ، تنفيذاً لوصية النبي ﷺ وآله باتباع الخلفاء الأربعة الراشدين، وبالتالي فلا مجال لتغليب رأى على رأى آخر، حتى نتمكن من توحيد كلمة المسلمين، والتصدي لما يحاك لهم من مؤامرات.

(١) مذهب أهل السنة الاعتقاد بأن ما سنّه الخلفاء الراشدون الأربعة (أبو بكر - عمر - عثمان - علي) يعمل به، مصداقاً لقوله ﷺ وآله: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)، ونحن لا نصادر على الشيعة فهمهم أن الخلفاء الراشدين هم الأئمة من أهل البيت، وليعمل كل بما يفهم، ولا ينكر مذهب عمل المذهب الآخر، حتى تتوحد كلمة المسلمين.